# الباب الثالث

## شعر حسان

# الفصل الأول

## شعر حسان الجاهلي

### كيف نميز شعره الجاهلي من سواه

الآن وقد فرغنا من الكلام عن حسان وبيئته وعصره ننتقل إلى الكلام عن شعره ، لأن شعره نتيجة التفاعل بين هؤلاء جميعاً .

عاش حسان شطر حياته فى الجاهلية وشطرها الآخر فى الإسلام على ما قدمنا ، وشعره فى تلك الفترة الجاهلية ينبغى ألا يكون متجاوزاً ما قاله فى حياته الأولى بالمدينة ، حين تقاسم شبابه جانبان : حياة اللهو والنعيم ، وحياة الجد باشتراكه فيما بين قومه وإخوتهم الأوس من نزاع وحرب ، ولا متجاوزاً ما قاله حين خرج من المدينة إلى ما حولها ، وإلى عكاظ ، وعند الغساسنة فى الشام ، والمناذرة فى الحيرة . وما جاء من هذا الشعر جاهلى النزعة ، خالياً من روح الإسلام وما يدل عليه .

وليس فى وسعنا ، ولا فيما تصفحناه من المراجع ما يمكننا من القطع فى أولية شعر حسان ، ولا إعطاء تاريخ دقيق لقصيدة مما قاله فى ذلك العهد ، حتى المشتملة على ذكر حوادث أو حروب تكاد تكون معروفة التاريخ ، لاحتمال ألا تكون هذه القصائد قد أنشأها الشاعر مقترنة بوقوع تلك الحوادث ، أو بعدها بقليل أو كثير من الزمن ، ولأنه ثابت مما مضى من تاريخ حسان أنه ذكر فى بعض قصائده ما لم يشهده من حروب قومه ، ولكنه سمع به بعد زمان من حدوثه [1] ، ولكننا نكاد نطمئن إلى أن شعره فى حياته وحياة قومه بالمدينة سابق فى الجملة على غيره مما ذكرنا ، ذلك لأن التعبير عما يختلج فى الصدر من عواطف هو أول ما يستبق إلى الظهور على لسان الشاعر ، ولأن حياة قومه بالمدينة هى الصورة التى طالعته منذ نشأته ، وصحبت شبابه ، وتركت أثرها فى نفسه ، ولأن الشاعر لا يرتحل إلى الملوك فى العادة إلا بعد أن يبلغ أشده ، ويكتمل فنه ، ويأنس القدرة على

---

(١) انظر ص ١٠٤ من هذا الكتاب .

خوض معارك الشعر فى مثل ذلك الميدان مصاولا مشاهير الفحول ، وإن كان اتصاله هذا بالملوك لم يقطعه عن الاستمرار فى إنشاء الشعر فى قومه ، على ما نرى من شعره الذى قاله فى بعاث وغيره ، مما تأخر زمنه .

**فنونه**

وقد أسلفنا أن المدينة كانت تفوق فى التمدن القديم غيرها من الأمصار العربية الكبرى ، وأن الأوس والخزرج بعد أن صارت إليهم السيادة بها قد أوقدوا بينهم نار العداوة والحرب للاستئثار بهذه السيادة ، وأن الخزرج كانوا أطول باعاً فى ذلك ، وأن بنى النجار كانوا فى الذؤابة من الخزرج ، وكان بيت حسان فى بنى النجار بيت رياسة وشرف ، وبيئة شعر ولسن ، وأن هذه الحياة بما فيها قد أثرت فى حسان وأثر فيها ، ولذلك كان شعره أول الأمر دائراً بين تصوير عواطفه ولذاته فى الشراب والغزل ، وبين الافتخار بمظاهر هذه السيادة فى قومه والهجاء لأعدائهم .

**الفخر**

**شيوعه — منهجه — إحصاؤه — دواعيه**

وإذا كانت بيئة المدينة بما حوت من حضارة وترف ولهو وغنى قد اجتذبت حسان إلى مسايرتها ، إرضاء لعواطفه وإشباعاً لشهوات نفسه ، فتغزل ووصف مظاهر الحياة ومباهجها فيما حوله ، فإن شعور حسان بمجد آبائه ومفاخر قومه ، وشدة حاجته إلى التنويه بهذه المناقب العالية ، والوقوف إلى جانب الخزرج فى حروبهم الطاحنة مع الأوس ، كان داعياً إلى شيوع الفخر وغلبته على أكثر ما أثر له من الشعر ، حتى ليشق على الباحث أن يجد له مطولة واحدة خلت من الفخر ، والإشادة بمجد قومه وسيادتهم وحسن بلائهم ، ولم يكن له مندوحة من أن يمزج بين الفخر والغزل فى أكثر قصائده ، وبينهما وبين الوصف فى كثير منها . وقد استقصينا شعره الجاهلى بديوانه على ضوء ما أسلفنا ، فكان اثنتين وخمسين قطعة[1] ، منها ثلاث عشرة قصيدة تزيد الواحدة منها على خمسة عشر بيتاً[2] .

---

(١) انظر الجدول رقم ١ .

(٢) الديوان : الأرقام ٢ و ٤ و ٨ و ١٠ و ١٢ و ١٣ و ١٨ و ٢٤ و ٢٨ و ٢٩ و ١١٧ و ١٥٥ و ٢١٦ .

وقد فخر فى اثنتى عشرة منها ، وتغزل فى تسع ، ووصف فى سبع ، فامتزج فخره بالغزل فى ثمان ، وبالوصف فى ست .

فإذا كان للفحول السابقين من الشعراء ما اشتهروا به ، وعرفوا بالإجادة فيه ، كامرئ القيس فى تغزله ووصفه للطبيعة والصيد ، وزهير فى حكمته وتصويره لمشاهد البادية ، والأعشى فى خمرياته ، والنابغة فى اعتذارياته ، فقد كان لحسان أيضاً حظه من الإحاطة والإجادة فى فخره المتطاول .

كان الفخر غريزة قاهرة وطبيعة غلابة فى نفس حسان ، غذاها ونماها وزادها قوة ذلك النسب العريق ، وتلك المآثر الخالدات ، وجاهه العظيم عند الملوك ، واضطراره إلى إعلان مفاخره حين رأى خمول ذكره فى ميادين المعارك والحروب ، وكثرة من التف حوله من الخصوم ، الذين كرهه بعضهم لقبيلته ، وكرهه الآخرون لتيهه وزهوه ، وسَيده ولَدَده ، وكان لابد له من أن يفخر على أعدائه وأعداء قومه ، ففاض شعره بالفخر ، حتى لتراه يفخر إذ يتغزل ، وإذ يصف ، وحين يمدح ، وحين يهجو . وقد كان فخره ناصعاً قويّ الدفاقاً رائع النسج ، لأنه يستمد من ينبوع غزير المفاخر ، ويأخذ من عين ثَرَّة بالمكارم ، فأضفى على ما خالطه من شعره طلاوة الحسن ورونق الحياة .

## حسان ومذاهب الفخر المعاصرة

كان حسان يفخر بنفسه ، وبالخزرج ، وبقومه الأزد ، فإذا افتخر بنفسه ذكر شجاعته وجوبه الفيافى ، وصرامة سيفه ولسانه ، وعُلوّ شعره ، وسخاء يده فى اليسر والعسر ، وحياءه وعفته ، ونصره للعشيرة ، وحفظ غيب القبيلة ، ومعاداة أعدائها ، ومآثره فى قومه ، ورحلته إلى الملوك ، على عادة الجاهليين ، وذكر أيضاً ما يكون من خلائقه مع إخوانه ونداماه ، فى اختيار العشراء ، ومكارمة من يكارمه ، وحبه الغناء والخمر والسمر .

## إحدى قصائده

وهذه إحدى قصائده التى تمثل ما قدمناه من الجمع بين الفخر والوصف والغزل . بدأها بقوله :

إن النَّضِيرةَ رَبَّةَ الخِـدْرِ أَسْرَتْ إليكَ ولم تكنْ تَسْرِى[١]

وسرعان ما ترك هذه النضيرة التى أسرت إليه ولم تكن تسرى ، بعد مساءلة يسيرة عن اهتدائها لمنزل السفر . والعيس فى فتورها وكلالها ، وإرخاء الركبان لأزمّتها ، وظهور مساوئها من الضمور والهزال ، إلى الفخر بنفسه . فى اغتياله لركود النهار الطويل بالنجائب المائلة الخدود حدة ونشاطاً ، يستقبلن الهاجرة نافحات فى أزمتهن ، فما ينزلن فى مناخ إلا ريثما يتحولن عنه كما تفعل القطا ، وقد سما على عود حرباؤها أو هم بذلك من وقدة الحر ، وفى تكلفه مسبر اليوم الطويل ، الذى تصر جنادبه من الظهر ، وإدلاجه الليلة الظلماء فى الديمومة الموحشة القفر ، التى لا تتجاوب بها إلا أصداء البوم ناعبة ناعية ، كما ينعى المفجوع صاحب القبر ، والتى يشق على السارى سراها ، حتى إذا أخرج يده لم يكد يراها . فيقول :

كُنَّا إذا رَكَدَ النهارُ لنا نَغْتالُه بنَجَائِبٍ صُعْرِ[٢]
عُوجٍ نَوَاجٍ يَغْتَلِينَ بنا يُعْفِينَ دونَ النَّصِّ والزَّجْرِ[٣]
مُسْتقبلاتٍ كلَّ هاجِرَةٍ يَنْفَحْنَ فى حَلَقٍ من الصُّفْرِ[٤]
وَمناخُها فى كل منزلةٍ كمَبيتِ جُونِىِّ القطا الكُدْرِ[٥]
وسما على عُودٍ فعارَضَنَا حِرْباؤُهـا أَوْهَمَّ بالخَطْرِ
وتَكَلُّفِى اليومَ الطويلَ وقد صَرَّتْ جَنادِبُهُ من الظُّهرِ[٦]
والليلةَ الظلماءَ أُدْلِجُها بالقَوم فى الدَّيْمُومَةِ القفرِ[٧]

---

(١) الديوان رقم ٨ .

(٢) ركد النهار : سكن وطال . نجائب : جمع نجيبة وهى الناقة الكريمة . صعر : مائلات الأعناق والخدود .

(٣) عوج : جمع عوجاء وهى الضامرة من الإبل . نواج : جمع ناجية وهى الناقة السريعة . يغتلين : يسرعن . واغتلى : أسرع . النص : استخراج أقصى ما عند الناقة من السير .

(٤) ينفحن : يهبن مسرعات كالريح . الصفر : النحاس .

(٥) الجونى : ضرب من القطا وهو طائر . الكدر : التى فى لونها غبرة .

(٦) الجندب : جراد .

(٧) أدلج : سار ليلا . الديمومة : الفلاة الواسعة .

يَنْعَى الصَّدَى فيها أَخاه كما يَنْعَى المُفَجَّعُ صاحبَ القبرِ [١]
وتَحُولُ دونَ الكَفِّ ظُلمتُها حتى تَشُقَّ على الذى يَسْرِى

وهو بهذا كالذى يعرض لصاحبته صورة من نفسه ، فى ركوبه الأهوال ومواجهته الأخطار ، ويزيد إلى ذلك افتخاره بهدايته للركب ، وبذله للراحلة ، واستسماحه لرفاقه فى العسر واليسر ، وأنه مع هذا لم تضعضعه الحوادث ، ولم يضق ذرعه بأمر يرومه ، ثم يصل به فخره بغلبته لمن يوازنه بأيسر مدافعة ، ومكارمته لمن يكارمه ، وإنحائه بظفره على من يعاديه ، يأبى له حسبه وما ينشئه من القول — الذى جعله لشدة أسره وقوة مقاطعه كمقالع الصخر — أن يكون ساقة للشعراء ، يسرق معانيهم ، زاعماً أن شعرهم لا يوازن المهمل المتروك من شعره ، كما يأبى له ذلك شيطانه من الجن الذى يعينه على الشعر ، ويحسن له حوك الكلام وتحبير القريض ، وذلك بقوله :

ولقد أَرَيْتُ الرَّكْبَ أَهلَهُمُ وهَدَيْتُهُمْ بمَهَامِهٍ غُبْرِ [٢]
وبَذَلْتُ ذا رَحْلِى وكنتُ به سَمْحاً لهم فى العُسْرِ واليُسْرِ
فإذا الحوادثُ ما تُضَعْضِعُنِى ولا يَضِيقُ بحاجتى صدْرِى
يُعْيِى سِقَاطِى من يُوَازِنُنِى إنى لَعَمْرُكَ لستُ بالهَذْرِ [٣]
إنى أكارِمُ من يُكارِمُنى وعلى المُكاشِحِ يَنْتَحِى ظُفْرِى [٤]
لا أَسرِقُ الشعراءَ ما نَطَقوا بل لا يُوافِقُ شِعْرَهم شِعْرِى
إنى أَبَى لى ذلكم حَسَبِى ومَقَالَةٌ كمَقَالِعِ الصَّخر
وأَخى من الجنِّ البَصِيرُ إذا حاك الكلامَ بأَحسنِ الحَبْر [٥]

(١) الصدى : طائر يصر بالليل ، وذكر البوم ، وما يرده الجبل على الصائح فيه .
(٢) المهامه : جمع مهمه وهو القفر .
(٣) السقاط : المهمل المتروك وما لا خير فيه . الهذر : الذى يهذى ويكثر الكلام فى الباطل .
(٤) المكاشح : العدو . ينتحى : يميل .
(٥) الحبر : الحسن والوشى. وقد التبس الأمر على الدكتور هرشفيلد مخرج ديوانه فحسب أن المقصود بقول حسان « وأخى من الجن . . . » فى البيت الأخير أخاه أوس بن ثابت . انظر شرحه للقصيدة بالديوان .

ثم رجع حسان إلى صاحبته النضيرة ، وأطال الحديث إليها ، بعد ما ذكر من مفاخره التى جبل الناس على اتخاذها وسيلة يتزينون بها عند المرأة ، ويبتغون بها المنزلة لديها ، وكانت هذه الطريقة فى الحديث إلى النساء شائعة فى أكثر الأدب الجاهلى ، ثم عاد مرة أخرى يراوح بين الغزل والفخر ، فذكر قومه بنى النجار ، وحسن رفدهم ، وحضور نصرهم ، وامتناعه بهم وبذوى المكارم من بنى جده الأعلى عمرو بن عامر على من يريد اهتضمامه ، فهم جرثومة عز لا ترام معاقلها من سالف الدهر ، فقال :

قَوْمِى بنو النجارِ ، رِفْدُهُمُ ... حَسَنٌ ، وهمْ لى حاضِرو النَّصْرِ
المَوتُ دونِىَ لست مُهْتَضَماً ... وذَوُو المكارمِ من بنى عَمْرِو
جُرْثومةٌ عــزَّ مَعَاقِلُها ... كانت لنا فى سالفِ الدهر[1]

**حسان وعبيد**

فأنت ترى حسان فى هذه القصيدة قد جرى فى مذاهب الشعر المعاصرة ، فتغزل ووصف الناقة والصحراء فى معرض الفخر بنفسه ، وعطف على قومه فذكر مآثرهم وافتخر بهم ، ولكنك ترى إلى هذا شيئاً آخر ، هو أن فخره كان غرضاً أساسيًّا فى قصيدته ، بالغ فيه وألح عليه ، وقد سبقه إلى هذا المنهج عبيد ابن الأبرص ، فى قصيدته التى مطلعها[2] :

أَمِنْ رُسومٍ نـأْيُها ناحِلُ ... ومِنْ ديارٍ دَمْعُكَ الهامِلُ

إذ يقول :

أَقْوَتْ من اللاَّئِى هُمو أَهلُها ... فما بها إذْ ظَعَنوا آمِلُ[3]
وربما حَلَّتْ سُلَيمَى بها ... كأَنها عُطْبولةٌ خاذِلُ[4]

---

(١) الجرثومة : الأصل .
(٢) ديوانه ص ٢٦ .
(٣) أقوت : خلت . ظعنوا : رحلوا .
(٤) العطبولة : المرأة الفتية الجميلة الممتلئة الطويلة العنق . خاذل : متخلفة عن صواحبها مقيمة على ولدها .

لولا تُسَلِّيكَ جُمَالِيَّةٌ أَدْماءُ دامٍ خُفُّها بازِلُ[١]
حَرْفٌ كأَنَّ الرحْلَ منها على ذى عانَةٍ مَرْتَعُهُ عاقِلُ[٢]
يأَيُّها السائلُ عن مَجْدِنا إنك عن مَسْعاتِنا جاهلُ
إنْ كنتَ لم تَأْتِكَ أَيامُنا فاسأَل تُنَبَّأْ أَيها السائلُ
سائلْ بنا حُجْرًا وأَجْنادَه يومَ تولَّى جَمعُه الجافِلُ[٣]

. . . . . .

وعامرًا أَنْ كيف يَعْلوهمُ إذا التقينا المُرْهَفُ النَّاهِلُ[٤]
وجَمعَ غَسّانَ لقِيناهمُ بجَحْفَلٍ قَسْطَلُهُ ذائِلُ[٥]
قَوْمِى بنو دُودَانَ أَهلُ النُّهَى يوماً إذا أُلْقِحَت الحائِلُ[٦]
كمْ فيهمُ من سَيِّدٍ أَيِّدٍ ذى نَفَحاتٍ قائل فاعل[٧]
من قولُه قولٌ ومن فعلُه فعلٌ ، ومن نائلُه نائلُ[٨]
القائلُ القولَ الذى مِثلُه يَنبُتُ منه البلدُ الماحِلُ[٩]
لا يَحْرِمُ السائلَ إن جاءه ولا يُعَقِّى سَيْبَه العاذلُ[١٠]
والطاعِنُ الطَّعْنَةَ يومَ الوغى يَذْهَلُ منها البطلُ الباسلُ

والناظر فى هاتين القصيدتين يرى الشاعرين قد بدأ كل منهما قصيدته بالغزل

---

(١) جمالية : ناقة قوية وثيقة كالجمل . الأدماء : ما فيها أدمة ، وهى فى الإبل لون مشرب سواداً أو بياضاً أو هو البياض الواضح . البازل : من ناقة أو جمل ما بلغ تسع سنين .
(٢) حرف : عظيمة . العانة : القطيع من حمر الوحش . عاقل : جبل ، وسبعة مواضع .
(٣) حجر : أمير كندة . الجافل : الخائف المنزعج .
(٤) المرهف : السيف الحاد . الناهل : الشارب من دمائهم .
(٥) الجحفل : الجيش الكثير . القسطل : الغبار . ذائل : ذو ذيل . والمراد أن سحب الغبار ممتدة .
(٦) الحائل : التى لم تلقح .
(٧) أيد : قوى .
(٨) النائل : العطاء .
(٩) الماحل : الذى لا نبات فيه .
(١٠) يعقى : يعوق ويحبس ويمنع .

وذكر صاحبته ، ولم يلبث أن ترك ذلك إلى وصف الناقة ، ثم انتهى إلى الفخر الذى ينشده ، فقال فيه وأطال ، غير أن حسان كان أكثر استيعاباً لمزايا ناقته ، وأبرع استخداماً لهذه المزايا فى إبراز مفاخره التى سبقت الإشارة إليها ، إذ يقول فى أبياته :

كنا إذا رَكدَ النهارُ لنا نَغْتالُهُ بنَجائِبٍ صُعْر

. . . . . .

على حين اتخذ عبيد ناقته تسلية له فيما يكابد من ذكرى حبيبته ، وما أصابه بالوقوف فى رسومها الدوارس ، وذلك بقوله فى بيتيه :

لَوْلاَ تُسَلِّيكَ جُمَالِيَّةٌ أَدْماءُ دامٍ خُفُّها بازِلُ

حرفٌ كأَن الرحل منها على ذى عانة مرتعُه عاقلُ

وقد اختلف منهج الشاعرين بعد ذلك فى الفخر ، فجمع حسان بين الفخر بمواهبه ومكارمه المختلفة فى ميادين الشجاعة والسماحة والبذل والقول ، والفخر بقومه بنى النجار ، إلا أن فخره بنفسه كان هدفه الأول ، وكان له من العناية والذكر النصيب الأوفر ، أما عبيد فقد نسى نفسه وذكر قومه ، فأخلص فخره لهم ، وأطال فيه وفصل وأسبغ ، فكان فخره بهم أشمل وأعمق وأبلغ .

على أنه إذا كان حسان قد خالف عبيداً فى منهجه بهذه القصيدة فإنه يتفق معه فى هذا المنهج بقصيدته التى مطلعها :

أَلَم تَسأَلِ الرَّبْعَ الجديدَ التَّكَلُّما بمَدْفَعِ أَشْداخٍ فَبُرقةِ أَظْلَمَا[1]

وقصيدته التى مطلعها :

لكِ الخيرُ غُضِّى اللَّوْمَ عنى فإننى أُحِبُّ من الأَخلاقِ ما كان أَجْمَلاَ[2]

والأخرى التى مطلعها :

لِمَنْ منزلٌ عافٍ كأَنَّ رُسومَه خَيَاعِيلُ رَيْطٍ سابِرِيٌّ مُرَسَّمِ[3]

---

(١) الديوان ٤ .

(٢) الديوان ٦ .

(٣) الديوان ١٠ .

## قصيدة أخرى

ثم نعود إلى حسان لنرى من فخره بنفسه أيضاً وصيته صاحبته من قصيدته التى مطلعها[١] :

أَلَمْ تَذَرِ العَيْنُ تَسْهادَها وجَرْيَ الدمـــوعِ وإنْفَادَها

فتغزل بشعثاء ، ثم جرى مع الشعراء فى معنى جرت بذكره عادتهم ، فدعا صاحبته ألاتتخذ بعده إذا هلك من كان ظلاّماً للعشيرة ، حسّاداً للكرام ، يبغض سادتها لتقصيره عن مداهم ، ويمتدح ثلب أعراضها سفاهاً وحمقاً ، فإن عاتبوه على تفريطه فى حقها ، ونابها ما يحتاج إلى الغَناء والكفاية ازداد إمعاناً فى غيه وإعراضاً عن نصرتها . وحسان فى خلال هذا كالذى يفخر بنفسه ويمتدحها بما يقابل هذه الصفات التى ذمها ، وحذر صاحبته من اختيار من يتصف بها . وفى ذلك يقول :

فإمَّا هَلَكْتُ فلا تَنْكِحِى خَذُولَ العَشِيرةِ حَسَّادَها
يَرَى مِدْحةً شَتْمَ أَعْراضِها سَفَاهاً ويَبْغَضُ مَنْ سادَها
وإنْ عاتبوه على مَرَّةٍ ونابَتْ مُبَيِّتَةٌ زادَها[٢]

ثم صرح بالفخر بنفسه ، فقال :

ومِثْلى أَطـــاعَ ولكننى أُكَلِّفُ نَفْسِى الذى آدَها[٣]
سأُوتِى العَشيرةَ ما حاولتْ إلىّ ، وأُكْذِبُ إبعادَهـــا
وأَحمِلُ إن مَغْرَمٌ نابَهَا وأَضرِبُ بالسَّيفِ من كادَها

وعطف على قومه مفتخراً بهم على عادته ، فقال :

ويَثْرِبُ تَعلمُ أَنَّا بِها أُسودٌ تُنَفِّضُ أَلْبَادَهـــا

---

(١) الديوان ٢٨ .
(٢) المبيتة : المصيبة تأتى بياتاً .
(٣) آدها : أثقلها .

نَهُزُّ القَنَا فى صُدورِ الكُمَا ةِ ، حتى نُكَسِّرَ أعوادَها
إذا ما انْتَشَوْا وتَصابَى الحُلو مُ ، واجْتَلَبَ الناسُ أَحْشادَها[1]
وقال الحَوَاصِنُ للصالحيـ ـنَ : عاد له الشَّرُّ مَنْ عادَها[2]
جَعَلْنا النعيمَ وِقاءَ البُئُو سِ ، وكنا لَدَى الجَهْدِ أعمادَها[3]

وقد استشهد يثرب على ما لهم بها من عزة وصولة ومنعة ، وأنهم يدقون برماحهم صدور أعدائهم حتى تتكسر أعوادها ، وأنهم يتركون نعيمهم ويرتضون بؤسهم إذا تداعت الجموع إلى الحرب ، ودعت النساء على الأشراف الذين يوقدون نارها .

**حسان وطرفة والنابغة**

وحسان هنا ممن لخصوا جمال الدعاء فى الشعر ، بقوله : « عاد له الشر من عادها » . وجرى فى ذلك وراء طرَفة بن العبد فى قوله :

ولا غَرْوَ إلا جارتى وسؤالُها أَلاَ هلْ لنا أَهلٌ ؟ سُئِلتِ كذلك[4]

وابن قُتَيبة يعد هذا البيت من جيد كلام طرفة ، كما يعد من طريف الدعاء قول النابغة فى الإشفاق من موجِدة النعمان ، والحرص على نفى الريبة عن نفسه :

أَغيرَك مَعْقِلاً أَبْغِى وحِصْناً! فَأَعْيَتْنِى المعاقلُ والحُصونُ
وجئتُكَ عارياً خَلَقًا ثيابى على خوفٍ تُظَنُّ بِىَ الظُّنونُ

وعندى أن ابن قتيبة لو عرض لهذا البيت من شعر حسان ، لكان له فيه مثل رأيه فى كلام النابغة من الحسن والظرف .

---

(١) انتشوا : أصابهم حال من المرح يخرجهم عن وقارهم كحال السكر . تصابت الحلوم : مالت العقول إلى الصبا وأحوال الفتوة . الأحشاد : الجموع .

(٢) الحواصن : جمع حاصن وهى المرأة العفيفة .

(٣) الجهد : الشدة . أعمادها : سندها .

(٤) غرو : عجب .

**من رائع فخره بقومه**

وهذه قصيدة أخرى تؤيد ما أسلفنا من الدعوى فى جمعه بين الفخر والوصف والغزل فى أكثر مطولاته الجاهلية ، وإذا كنا قد طالعنا فى قصيدته السالفة لوناً من فخره بنفسه ، فسيطالعنا فى هذه القصيدة لون آخر من فخره بقومه ، وقد استهلها بقوله[١] :

لِمَن منزلٌ عافٍ كأَنَّ رُسومَهُ خَيَاعِيلُ رَيْطٍ سَابِرِيٍّ مُرَسَّمِ[٢]

فوصف الديار وذكر سالف الأيام ، وما كان بينه وبين ليلى من الحب ، وإقامته على العهد ، وتنصل مما تقوّل عليه أعداؤه ، وانتهى إلى الفخر بقومه ، فوجه القول إلى صاحبته كما جرت بذلك عادة الشعراء فى عصره ، حينما يتعرض أحدهم لذكر مفاخره أو مفاخر قومه ، أو وصف ما دار بينهم وبين أعدائهم من الحروب ، فطلب إليها أن تسأل ذوى العلم ، كى تعلم أنهم مقدّمون فى كرمهم وعزّهم ، وأنهم العرانين المصاليت الذين يمنعون المعتّر ، ويبطشون بالجبار الذى يكيدهم ، لا يدفعون الضيف عن القرى ، ولا يسلمون الجار فى النوائب ، وأنهم يبيحون حمى الأعزة ولا يستباح حماهم ، لأنهم يدفعون عنه بسيوفهم ورماحهم ، فى ثوب من العبارة الجزلة القوية يتلاءم مع هذا الفخر العريض ، وذلك حين يقول :

فإنْ كنتِ لمّا تَخْبُرِينا فسائلى ذوى العلمِ عنا كى تُنَبَّىْ فتعْلَمى[٣]
متى تَسأَلى عنا تُنَبَّىْ بأَنَّنا كرامٌ ، وأَنَّا أَهلُ عزٍّ مُقَدَّمِ
وأَنا عَرانينٌ صقورٌ مَصَالِتٌ نَهُزُّ قناةً مَتْنُهَا لم يُوَصَّمِ[٤]

---

(١) ديوانه رقم ١٠ .

(٢) عاف : مندثر المعالم . رسومه : بقايا آثاره . الخياعيل : القطع المشقوقة . الريط : جمع ريطة وهى القطعة الرقيقة الليّنة من القماش . المرسم : المنقط ذو الرسوم .

(٣) رواية البيت بالديوان « فإن كنت لما تخبرين فسائلى» والعبارة على هذا غير صحيحة ولكنها جاءت بمخطوط دار الكتب ٢٩ أدب م كما ذكرنا هنا .

(٤) عرانين : مقدمون . مصالت : جمع مصلت وهو الرجل الماضى فى الحوائج والسيف الصقيل الماضى . القناة : الرمح . لم يوصم : لم يلحقه عيب .

لَعَمْرُكَ ما المُعْتَرُّ يأْتى بلادَنا لِنَمْنَعَه بالضائع المُتَهَضَّمِ[1]
ولا ضيفُنا عندَ القِرَى بمُدَفَّعٍ ولا جارُنا فى النائبات بمُسْلَمِ
وما السَّيدُ الجَبَّارُ حين يُريدُنا بِكَيْدٍ على أَرْماحِنا بمُحَرَّمِ
نُبيحُ حِمَى ذى العِزِّ حين نَكِيدُهُ ونَحْمِى حمانا بالوَشِيجِ المُقَوَّمِ[2]

**حسان وبعض الشعراء**

وهو فى فخره هذا يجارى مناهج الفخر المألوفة عند المعاصرين له ، وما أشبه قوله :

نبيح حمى ذى العز حين نكيده ونحمى حمانا بالوشيج المقوَّم

بقول السموءل بن عاديا :

ونُنكِرُ إن شِئنا على الناس قَولهمْ ولا يُنكِرون القولَ حينَ نقولُ

وبقول عمرو بن كلثوم من معلقته :

ونشربُ إنْ وَرَدْنا الماءَ صَفْوًا ويَشربُ غيرُنا كَدَرًا وطينا

وما أتم موافقته لأوس بن حجر لفظاً ومعنى فى قوله :

نُبِيحُ حِمَى ذى العِزِّ حين نَكِيدُهُ ونَحْمِى حِمانا بالوَشِيجِ المُقَوَّمِ

ومثل هذه الموافقة يبعد أن يكون من قبيل اتفاق الخواطر ، وابن عبد الكريم الموصلى يرى هذا نوعاً من السرقة يسميه « نَسخاً »[3] .

ثم يقول فى فخر شامل لكل معانى السيادة :

ونحن إذا لم يُبْرِم الناسُ أَمْرَهم نكونُ على أَمرٍ من الحَقِّ مُبْرَمِ[4]

---

(١) المعتر : الفقير . والمعترض للمعروف من غير أن يسأل . المتهضم : المظلوم .
(٢) الوشيج : شجر الرماح .
(٣) المثل السائر ص ٣٠١ .
(٤) أبرم الأمر : عقده وأمضاه .

ولو وُزِنتْ رَضْوَى بحِلْمِ سَرَاتنا ... لَمالَ بِرَضْوَى حلمُنا ويَلَمْلَمِ[١]

ونحن إذا ما الحربُ حُلَّ صِرارُها ... وجادتْ على الحُلَّابِ بالموتِ والدَّمِ[٢]

ولم يُرْجَ إلا كلُّ أَرْوَعَ ماجدٍ ... شديدِ القُوَى ذى عزَّةٍ وَتكَرُّمِ[٣]

نكونُ زِمامَ القائدينَ إلى الوَغَى ... إذا الفَشِلُ الرِّعْدِيدُ لم يَتَقَدَّمِ[٤]

فنحنُ كذاكَ الدهرَ ما هَبَّتْ الصَّبَا ... نعودُ على جُهَّالِهِمْ بالتَّحَلُّمِ

فلو فَهِمُوا أَو وُفِّقُوا رُشْدَ أَمْرِهِمْ ... لَعُدْنَا عليهم بَعْدَ بُؤْسَى بأَنْعُمِ

وإنَّا إذا ما الأُفْقُ أَمْسى كأَنَّما ... على حافَتَيْهِ مُمْسِياً لَوْنُ عَنْدَمِ[٥]

لَنُطْعِمُ فى المَشْتَى ونَطْعَنْ بالقَنا ... إذا الحَرْبُ عادتْ كالحريقِ المُضَرَّمِ

وتَلْقَى لدَى أَبياتِنا حينَ نُجْتَدَى ... مجالسَ فيها كلُّ كَهْلٍ مُعَمَّمِ[٦]

رفيعِ عِمادِ البيتِ يَسْتُرُ عِرْضَهُ ... من الذمِ مَيْمونِ النَّقِيبَةِ خِضْرِمِ[٧]

جوادٍ على العِلاَّتِ رَحْبٍ فِناؤه ... متى يُسْأَلِ المعروفَ لا يَتَجَهَّمِ[٨]

ضَروبٍ بأَعْجازِ القِداحِ إذاشَتا ... سريعٍ إلى داعِى الهِيَاجِ مُصَمِّمِ[٩]

أَشَمَّ طويلِ السَّاعِدَينِ سَمَيْدَعٍ ... مُعيدِ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ مُكَلَّمِ[١٠]

**فيصف قومه بأنهم يكونون على أمر من الحق مبرم حين يعجز الناس جميعاً عن**

---

(١) رضوى ويلملم : جبلان . الأول بالمدينة ، والآخر على مرحلتين من مكة، ويقال له ألملم ويرمرم والأخيرة رواية الديوان . أما يلملم فرواية مخطوط دار الكتب ٢٩ أدب م .

(٢) الصرار : ما يشد به ضرع الناقة ليحبس لبنها .

(٣) الأروع : من يعجبك بحسنه وجهارة منظره أو بشجاعته .

(٤) الزمام : ما يزم به ويشد . الفشل : الضعيف الجبان . الرعديد : الشديد الجبن .

(٥) العندم : شجر ساقه حمراء يصبغ به .

(٦) اجتداه : طلب عطاءه .

(٧) الخضرم : الجواد المعطاء والسيد الحمول .

(٨) التجهم : استقبال الغير بوجه عابس كريه .

(٩) القداح : جمع قدح وهو السهم قبل أن يراش ويركب نصله .

(١٠) أشم : مرتفع الأنف فى استواء . السميدع : السيد الكريم الشريف السخى الموطأ الأكناف والشجاع والخفيف فى حوائجه . الدارعون : لابسو الدروع . مكلم : به كلوم وجروح من آثار الطعان .

إبرام الأمور أو نقضها ، بما لهم من نفاذ الكلمة وعلو المقام واشتهار الأمر وفخامة الحسب ، وهو تطاول فى الافتخار يقترب فى معناه من مثله الأعلى فى قول السموءل السالف. ثم يتجاوز بالغلو فى دعوى رجحان حلوم السراة من قومه جبلى رضوى ويلملم ، وهذا أمر لا يتسع له الواقع ، وإن كان قد حاول التخفيف من هذه اللائمة بوضع لو فى صدر البيت .

**حسان وزهير**

ثم مضى فى طريق زهير وغيره من تشبيهه الحرب بالناقة التى جعلها تجود على الحلاب بالموت والدم ، إذ يقول عنها زهير فى معلقته :

فتَعْرُككُمْ عَرْكَ الرَّحَى بثِفَالِها وتَلْقَحْ كِشافاً ثم تُنْتَجْ فتُتْئِمِ (١)

ذاكراً أنهم حين يتأخر الجبان الرعديد يوم الطعان ، وحين لا يرجى للحرب إلا الأروع الماجد ذو القوة والعزة والتكرم ، يكونون هم قادة الوغى والحماة للحمى ، وأنهم كذلك يتحلمون على الجهال دهرهم ، ويعودون عليهم بالنعماء بعد البأساء ، إذا فهموا أنفسهم ، ووفقوا إلى الرشد من أمرهم ، وأنهم يطعنون بالقنا إذا تضرمت نار الحرب ، ويطعمون فى المشتى إذا أجدبت الأرض واحمرت آفاق السماء ، وأنك ملاق حول أبياتهم مجالس لكهولهم الميامين الخضارم ، من كل جواد على العلات ، رحب الفناء ، سمح اللقاء ، ضروب بالقداح ، سريع إلى الهيجاء ، رفيع العماد ، طويل الساعدين ، أشم الأنف ، موطأ الأكناف ، معاود لقراع الدارعين .

فأى فخر بعد هذا لم يسبغه حسان على قومه ، وأية محمدة وأية فضيلة لم يعمهم بها ؟

**حسان وبعض الشعراء**

وما أشبه منهجه هذا فى فخره بقومه بمنهج زهير . فى تفصيله لنواحى السيادة وفى شمول مدحه جميع ممدوحيه (٢) وما أقرب شعره هذا من شعر الفرزدق حين

---

(١) تلقح كشافاً : تحمل بمجرد اللقاح بعد الولادة مباشرة . تتئم : تأتى بتوأمين أو أكثر . تعرككم : تطحنكم وتهلككم . الثفال : جلدة تكون تحت الرحى إذا أديرت يقع عليها الدقيق .

(٢) انظر ديوان زهير ص ١٥ فى قصيدته التى مطلعها :

صحا القلب عن سلمى وقد كاد لا يسلو وأقفر من سلمى التعانيق فالثقل

يفخر ، فى قوة نفحته وطول نفسه ، وفى روعته ونسجه[١] . وقد قارب زهيراً فى ذكره للمجالس حول الأبيات ، من كلمته التى لم يلحق فى المدح بها ، إذ يقول :

وإن جئتَهُم أَلْفَيْتَ حولَ بيوتِهِمْ مَجالسَ قد يُشْفَى بأَحْلامِها الجَهْلُ

ووافق فى ذكره للمشتى ولاحمرار حافتى الأفق وما بعد ذلك أكثر الذاكرين لهذه المعانى من الشعراء الأقدمين ، من أمثال طرفة فى قوله :

ونحنُ إذا ما الغَيْمُ أمسى كأنَّه سَمَاحِيقُ ثَرْبٍ وهى حمراءُ حرْجَفُ[٢]

تَبيتُ إماءُ الحَىِّ تَطْهَى قُدورَنا ويَأْوِى إلينا الأَشْعَثُ المَتَجَرِّفُ[٣]

## نقد وتعليق

وقد تخير حسان هنا للفخر ألفاظاً جزلة سمحة قوية ، بعيدة من الخشونة والغرابة والاستكراه ، مطمئنة إلى مواضعها ، يحتضن بعضها بعضاً احتضان الأليفين المشوقين . وفى القصيدة من استواء نظمها ، وقوة قوافيها ، وتدفق عبارتها ، واستيعابها لجملة المعانى الدائرة على ألسن الشعراء فى الفخر ، ما يدل على حظها من التصنيع والروية ، إلا أنه لم يرتفع بقومه إلى مصاف الأبطال حين قال :

---

(١) انظر ديوان الفرزدق جـ ١ ص ٢٧٤ إذ يقول :

لنا عَدَدٌ يُرْبى على عدد الحصى ويُضْعِفُ أضعافاً كثيراً عَذِيرُها

و جـ ١ ص ٤٢ إذ يقول :

أَنا ابن ضَبَّةَ فَرْعٌ غيرُ مُؤْتَشِبٍ يَعْلُو شِهابى لَدَى مُسْتَحْمَدِ اللهبِ

و جـ ٢ ص ٤٠٧ إذ يقول :

إذا خِنْدِفٌ بالليل أَسْرَفَ سَجْرُها وجاشت من الآفاق بالعَدَدِ الدَّثْرِ

و جـ ٢ ص ٤٤٨ إذ يقول :

يا بنَ المَرَاغَةِ إنما جارَيْتنى بِمُسَبَّقِينَ لَدَى الفَعَالِ قِصارِ

(٢) السماحيق : جمع سمحاق وهو الغيم الرقيق . الثرب : رقائق دهن البطن يشبه المنديل ( الطرب ) الحرجف : الريح الشديدة .

(٣) الأشعث : سيىء الحال . المتجرف : المعدم .

نكون زِمامَ القائدين إلى الوغَى إذا الفَشِلُ الرِّعْدِيدُ لم يَتَقدمِ

إذْ لا فخر لبطل يتقدم حين يتخلف الهيابة الجبان ، إنما الفخر لمن يتقدم حين يتأخر الشجاع المقدام . وهو كذلك قد حرم قوله فضل قوة وتمكُّن وحسن حين قال :

وإنا إذا ما الأُفْقُ أمسَى كأنما على حافَتَيْهِ مُمْسِياً لونُ عَنْدَم
لنُطْعِمُ فى المشْتَى . ونطعن بالقنا إذا الحربُ عادت كالحريق المُضَرَّم

فاجتزأ بقوله« لنطعم فى المشتى » وجعله وحده دون سند معه محطًّا لفائدة طالت مقدمته لها ، حتى اشتاق السامع لاستجلاء خبرها ، فألقى به قلقاً على عجل ، وانتقل عنه إلى معنى آخر لا مناسبة بينه وبينه . وهو الحديث عن الحرب والطعن ، مع أنه قد أشبعه قبل ذلك ووفّاه .

ويمكن الاستدلال بما ساقه من مفاخر قومه التى لم يترك فيها منقبة ولا معنى يباهى به أهل البادية أو أهل الحضر فى الجزيرة العربية إلا ألم به ، على عمق شعوره بسيادة قومه وشدة تأثره بها ، وعلى أن تلك المآثر قد أمدته بما جعل منه شاعراً فخوراً يستريح إلى التنويه بها ، مما حمله على تخصيص أكثر من عشرين بيتاً فى هذه القصيدة لإذاعتها ، وقد نسى نفسه — وهو فخور — حين ذكر قومه ومفاخرهم ، مكتفياً بما يعود عليه من التنويه بهم ، فكان بذلك مؤدياً لرسالة الشاعر العربى فى عصر وبيئة تعملان على بسط سيادة الجماعة ، وإعلاء شأن القبيلة .

**قصيدته بعكاظ**

وقد تقدم أن حسان خرج إلى عكاظ ، فلقى هناك الأعشى والخنساء وغيرهما من الشعراء ، والنابغة يقضى فى الشعر بينهم ، وأنه أنشده شعره ، وأن النابغة قال للخنساء حين أنشدته : « والله لولا أن أبا بصير أنشدنى قبلك لقلت إنك أشعر الناس» ، فحمى لذلك حسان وغضب ، ورأى أن النابغة قد استلبه بذلك حقًّا ، فقال له : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ، فقال النابغة : حيث تقول ماذا ؟ قال حيث أقول :

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحَا وأَسيافُنا يَقْطُرْنَ من نَجْدَةٍ دَمَا

فقال يا ابن أخى . إنك لا تحسن أن تقول :

فإنكَ كالليلِ الذى هو مُدْرِكِى وإنْ خِلتُ أَنَّ المُنْتَأَى عنكَ واسع

ومن الخير أن نعرض جملة فخره فى تلك القصيدة ، التى بدأها بقوله [١] :

أَلم تَسأَل الرَّبْعَ الجديدَ التَّكَلُّما بمَدْفَعِ أَشْداخٍ فَبُرْقَةِ أَظْلَمَا

فشبب بشعثاء ، وذكر ديارها ، ووصف السحاب والمطر ، ثم قال مفتخراً :

أَلَسْتُ بنِعْمَ الجارُ يُؤْلَفُ بيتُهُ لذِى العُرْفِ ذا مالٍ كثيرٍ ومُعْدِمَا [٢]

ونَدْمانِ صِدْقٍ تَمْطُرُ الخيرَ كَفُّهُ إذا راح فَيّاض العَشِيّاتِ خِضْرِمَا

وَصَلْتُ به رُكْنِى ووافق شِيمَتِى ولم أَكُ عِضًّا فى النَّدامَى مَلَوَّمَا [٣]

وأَبقَى لنا مُرُّ الحروب ورُزْؤُها سيوفاً وأَدراعاً وجَمْعاً عَرَمْرَمَا [٤]

إذا اغبرَّ آفاقُ السماء وأَمْحَلَتْ كأَنَّ عليها ثوبَ عَصْبٍ مُسَهَّمَا [٥]

حَسِبتَ قُدورَ الصَّادِ حولَ بيوتِنا قنابلَ دُهْماً فى المحلة صُيَّمَا [٦]

يَظَل لديهـا الواغِلون كأَنما يُوافون بحراً من سُمَيْحَةَ مُفْعَماً [٧]

لنا حاضرٌ فَعْمٌ وبادٍ كأَنه شَمَارِيخُ رَضْوى عزةً وتَكَرُّمَا [٨]

متى ماتَزِنَّا من معَدٍّ بعُصبَةٍ وغَسَّانَ نَمْنَعْ حوضَنا أَنْ يُهَدَّمَا

---

(١) الديوان ٤ .

(٢) العرف : المعروف والجود ، وما تبذله وتعطيه . المعدم : الفقير .

(٣) العض : البخيل والسيئ الخلق . الملوم : من يكثر الناس لومه .

(٤) عرمرم : كثير .

(٥) أمحلت السماء : اغبرت أو انقطع مطرها . العصب : نوع من الثياب ، وغيم أحمر يكون فى الجدب وهو المراد هنا .

(٦) الصاد : الصفر والنحاس . قنابل : جمع قنبلة وهى جماعة الخيل . صيما : جمع صائم والصوم الإمساك عن الأكل والشرب والكلام والسير .

(٧) الواغلون : الذين يدخلون على القوم فى طعامهم وشرابهم من غير دعوة . سميحة : بئر بالمدينة .

(٨) فعم : ممتلىء . شماريخ : جمع شمراخ وهو رأس الجبل .

بكل فتًى عارِى الأَشاجعِ ، لاَحَهُ ... قِرَاعُ الكُماةِ ،يَرْشَحُ المِسْكَ والدَّمَا(١)

إذا استَدْبَرَتْنا الشمسُ دَرَّتْ مُتونُنا ... كأَن عُروقَ الجَوْفِ يَنْضَحْنَ عَنْدَما(٢)

وَلَدْنا بنى العَنْقاءِ وابنَىْ مُحَرِّقٍ ... فأَكرِمْ بنا خالًا وأَكْرِمْ بنا ابْنَمَا(٣)

نُسَوِّد ذا المالِ القليلِ إذا بَدَتْ ... مُروءَتُه فينا ، وإن كان مُعْدِمَا

وإنا لنَقْرِى الضيفَ إنْ جاءَ طارقاً ... من الشحمِ ما أَمْسَى صحيحاً مُسَلَّما(٤)

أَلَسْنا نَرُدُّ الكَبْشَ عن طِيَّةِ الهَوَى ... ونَقْلِبُ مُرَّانَ الوَشِيجِ مُحَطَّمَا(٥)

وكائِنْ تَرَى من سيِّدٍ ذى مَهابةٍ ... أَبوه أَبونا وابنِ أُختٍ ومَحْرَمَا(٦)

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ بالضُّحا ... وأَسْيافُنا يَقْطُرْنَ من نَجْدَةٍ دَما(٧)

أَبَى فِعلُنا المعروفَ أَن نَنْطِقَ الخَنَا ... وقائلُنا بالعُرْفِ إلا تَكَلُّما(٨)

فكلُّ مَعَدٍّ قد جَزَيْنا بصُنْعِهِ ... فبُؤْسَى ببُؤْساها وبالنُّعْم أَنْعُمَا(٩)

فتراه يتحدث عن نفسه حديثاً قصيراً ، مفتخراً بأنه نعم الجار المعين ، الذى قد ألف بيته طالبو المعروف فى حالى اليسار والإعسار ، وأنه بين نداماه ترضى سجاياه ، فليس بالبخيل السيئ الخلق ، وقد وثق عرى مودته بمن وافقت شيمتُه شيمتَه من ندامى كرام ، تمطر أكفهم خيراً ، وتفيض عشياتهم جوداً ، ثم ينتقل إلى

---

(١) الأشاجع : أصول الأصابع التى تتصل بعصب ظاهر الكف . لاحه : غيره . قراع الكماة : مضاربة الشجعان . يرشح المسك والدما : تسيل دماؤهم مختلطة بالمسك لأنهم ملوك .

(٢) المتون : الظهور والمراد بقوله « درت » أنها تمتلىء دماً . العندم : شجر أحمر الساق يصبغ به .

(٣) العنقاء هو ثعلبة بن عمرو بن عامر . ومحرق أخوه الحارث بن عمرو يقال : إنه أول من عاقب بالنار . ابنما : ابناً والميم زائدة .

(٤) طارقا : زائراً ليلا .

(٥) الكبش : رئيس القوم وقائدهم . الطية : النية . المران : جمع مارن وهو الرمح اللين المهز الوشيج : شجر الرماح .

(٦) كائن : أى وكم والمراد التكثير .

(٧) الجفنات : جمع جفنة وهى القصعة الكبيرة . الغر : البيض .

(٨) الخنا : الفحش .

(٩) البؤسى : السيئة . النعم : النعيم والحسن .

الحديث عن قومه ، مفتخراً بمآثرهم فخراً يصاول فخره فى القصيدة السالفة ، ذاكراً ما حفظوه للحروب من العدد والآلات والجمع العرمرم ، وما قام حول بيوتهم من القدور الضخام كجماعات الخيول الدهم ، عند اغبرار السماء واشتداد المحل ، يفد إليها الناس من غير دعوة ، فيجدون من فيضها ما يشبه بحراً من سميحة ، منوهاً بما لهم من حاضر ضخم ، وباد يطاول رءوس الجبال تكرماً وعزة ، وأنهم يرجحون من يوزنون به من معد على ماله من مجد وحسب ، فيحمون حماهم ويمنعون حياضهم ، ويقسم على ذلك قسما عظيماً ، وما أدراك بمن أقسم ؟ إنه يقسم بغسان قومه ملوك الشام ، وذلك لون آخر من الفخر المقنّع ، يضمه فى براعة إلى ألوان فخره السافر ، ثم يصل ذلك بالفخر بأنهم ولدوا بنى العنقاء وابنى محرق ، مشيراً إلى النسب الذى يجمعهم والغساسنة ، متكرماً بخئولتهم وبنوة أبنائهم ، ويسوق من دلائل مجدهم العريق ومفاخر حسبهم الرفيع أن المروءة سبيل السيادة فيهم ، ولو كان صاحبها فى المال قُلّ ، فإن المال ظل زائل . ثم ساق بيته السائر المشهور :

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحا وأسيافنا يقطرن من نجدة دما

الذى جمع فيه بين الفخر بجودهم ، والفخر بشجاعتهم ونجدتهم .

## النقاد حول بعض أبيات القصيدة

وقد ثار حول هذا البيت من شعره جدل الناقدين ، بعضهم يعيبه ، وبعضهم يمدحه ويطريه . فهم يروون أن النابغة قال لحسان حين أنشده : « إنك لشاعر ، ولكنك أقللت جفانك وأسيافك [١] » . وقيل : إنه عاب عليه أنه قال « الغر » ، ولو قال « البيض » لكان أحسن [٢] . وقال « بالضحا » ولو قال « بالدجى » لكان أحسن . وقال « يقطرن » ولو قال « يجرين » لكان أحسن [٣] . وكذلك أنكر قوم على حسان هذا القول محتجين عليه بمثل قول النابغة هذا [٤] .

---

(١) وذلك أن الجفنات والأسياف جمع لأدنى العدد ، وللكثير الجفان والسيوف .

(٢) الغرة : بياض قليل فى لون آخر .

(٣) الأغانى ٩/٣٤٠ دار الكتب . الموشح ص ٦٠ .

(٤) الموشح ص ٦٠ .

ولكن محمد بن سلام الجمحى يرى أن هذا البيت « من شعر حسان الرائع الجيد » [١] .

ويرد آخرون قول النابغة من أن الجفنات جمع قلة بأن سيبويه يرى أنها من جمع الكثرة ، وعبارة سيبويه « وقد يجمعون بالتاء وهم يريدون الكثير ، قال الشاعر :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحا » [٢]

ويقول قدامة فى ذلك: « إن حسان مصيب. إذ كانت مطابقة المعنى بالحق فى يده ، وكان الراد عليه عادلا عن الصواب إلى غيره . فمن ذلك أن حسان لم يرد بقوله « الغر » أن يجعل الجفان بيضا ، فإذا قصر عن تصيير جميعها بيضا نقص ما أراده ، لكنه أراد بقوله « الغر » المشهورات ، كما يقال يوم أغر ، ويد غراء ، وليس يراد البياض فى شىء من ذلك، بل يراد الشهرة والنباهة . وأما قول النابغة فى « يلمعن بالضحا » وأنه لو قال « بالدجى » لكان أحسن ، إذ كل شىء يلمع بالضحى ، فهذا خلاف الحق وعكس الواجب ، لأنه ليس يكاد يلمع بالنهار من الأشياء إلا الساطع النور الشديد الضياء، فأما الليل فأكثر الأشياء مما له أدنى نور وأيسر بصيص يلمع فيه ، فمن ذلك الكواكب ، وهى بارزة لنا مقابلة لأبصارنا دائماً . تلمع بالليل ويقل لمعانها بالنهار حتى تخفى . وكذلك السرج والمصابيح ، ينقص نورها كلما أضحى النهار ، وفى الليل تلمع عيون السباع لشدة بصيصها ، وكذلك اليراع حتى تخال ناراً . فأما قول النابغة أو من قال : إن قوله فى السيوف « يجرين » خير من قوله « يقطرن » لأن الجرى أكثر من القطر ، فلم يرد حسان الكثرة وإنما ذهب إلى ما يلفظ به الناس ويعتادونه ، من وصف الشجاع الباسل والبطل الفاتك ، بأن يقولوا « سيفه يقطر دماً » ولم يسمع « سيفه يجرى دماً » ولعله لو قال يجرين دماً يعدل عن المألوف المعروف من وصف الشجاع النجد إلى ما لم تجر عادة العرب بوصفه » [٣] .

---

(١) طبقات الشعراء ص ٨٤ .

(٢) رغبة الآمل من كتاب الكامل ٥ / ١٦٢ .

(٣) نقد الشعر ص ٣٦ و ٣٧ .

وما أشد إنصاف قدامة للحق فى قوله هذا ، وما أكثره تحرياً للصواب والسداد . .

ويكاد المرء يميل إلى أن هذا النقد المنسوب إلى النابغة مخترع منحول ، ومن حقنا أن نشك فى صحته ، لأنه فى ضعفه وتهافته مما لا يليق بالنابغة أن يقوله ، ولا أن يصدر عن مثله على حصافته وعلو كعبه .

وقد ذكروا كذلك أن النابغة قال لحسان حين أنشده من هذه القصيدة قوله :

ولدْنا بنى العنقاء وابنى محرِّق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

« فخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك »[1] .

وقال المرزبانى : [2] « إن هذا القول لاعذر عندى لحسان فيه على مذهب نقاد الشعر ، وقد احترس من مثل هذا الزلل رجل من كلب ، فقال يذكر ولادتهم لمصعب بن الزبير وغيره ممن ولد نساؤهم :

وعبدَ العزيز قد ولَدْنا ومُصْعَباً وكَلْبٌ أَبٌ للصالحين وَلُودُ

فإنه لما فخر بمن ولده نساؤهم فضّل رجالهم ، وأخبر أنهم يلدون الفاضلين ، وجمع ذلك فى بيت واحد ، فأحسن وأجاد » .

وعندى أن حسان لم يجاوز الصواب فى قوله هذا ، لأن بنى العنقاء وابنى محرق ولو أن حسان قد ذكرهم على أنهم فروع من دوحتهم الأولى إلا أنهم أقدم من عُرف من فروع هذه الدوحة وأبعدها صيتاً ، وهم فى سيادتهم وفى قدمهم قد عفّوا على آبائهم ، حتى كادت تنسى بهم أصولهم ، وهم ليسوا ممن ولدت النساء ، فالعنقاء هو ثعلبة بن عمرو بن عامر أصل الأوس والخزرج ، ومحرق هو أخوه الحارث ، وقد تفرع منهم أهل العز والمجد ، وتطاولت بعدهم الأحقاب حتى جاء حسان ومعاصروه ، وصاروا فى عرف التاريخ أصولا ينسب إليها ، لا فروعاً تنسب إلى غيرها . وإنما حلا لحسان أن يبالغ فى عراقة أنسابه ، فأحب أن يرجع هذه الأصول إلى أصول أبعد منها . وواضح أنه لا حسان ولا قبيلته قد ولدوا بنى العنقاء ، حتى

---

(١) الأغانى ٩ / ٣٤٠ دار الكتب . الموشح ص ٦٠ .

(٢) الموشح ص ٦٠ .

يكون قوله جارياً على الحقيقة ، وحتى يمكن أن يوجه إليه ما وجهه النابغة من النقد . وما أبعد الفرق بين العصور المتطاولة الممتدة من بنى العنقاء إلى حسان ، وبين العهد القريب الذى يصل ذلك الشاعر الكلبى ومصعب بن الزبير ، مما يجعل إشارة حسان إلى بنى العنقاء إشارة فرع إلى أصل معرق فى القدم لا شك فيه ، وإنْ حلا له أن يدعى كما قلنا أن لهم فى عالم النسب العريق مجالا أوسع ومدى أبعد . وحسان فى قوله هذا يتحدث بلسان قومه ، وهو لا يريد إلا أن يقول إنهم قد جمعوا المجد تليده وطارفه ؛ ولذلك قال « فأكرم بنا خالا » لأنه يقصد بالخال قومه القدامى . وقال « وأكرم بنا ابنما » يقصد بالابن نفسه وعشيرته .

قدمنا أن الفخر كان طبيعة غلابة على حسان ، وأنه كان يفخر بنفسه وبقومه ، وأنه كان كثيراً ما يمزج الفخر بالغزل ، ويجمع بينهما وبين الوصف ، وقد دعاه شعوره بمجد والده وعزة آبائه ، وما كان لهم من مناصب الرياسة والأيادى البيض فى بنى النجار . إلى أن يفرد قصيدة من قصائده للفخر بما كان لهم على قومهم فخراً خالصاً ، يحمل العتب الرقيق أن لم تقابل تلك الأيادى كفاءها من العرفان فى بنى النجار ، فقال[1] :

نَشَدْتُ بنى النجارِ أفعالَ والدِى ... إذا لم يَجِدْعانٍ له من يُوَازِعُهْ[2]

وراثَ عليه الوافِدون فما يَرَى ... على النَّأْىِ منهم ذا حِفاظٍ يُطالِعُهْ[3]

ومُدَّ عليه كلُّ أمرٍ يُريدُهُ ... وزِيد وثاقاً فاقْفَعَلَّتْ أصابعُهْ[4]

إذا ذَكَر الحَىَّ المقيمَ حُلُولُهُمْ ... وأبصَر ما يَلْقى اسْتَهَلَّتْ مدامعُهْ

ألسنا نَنُصُّ العِيسَ فيه على الوَجَى ... إذا نام مولاه ولَذَّتْ مضاجعُهْ[5]

ولا ننتهى حتى نَفُكَّ كُبُولَهُ ... بأموالِنا والخيرُ يُحمَد صانعُهْ[6]

---

(١) الديوان رقم ١٢ .
(٢) نشدت : ذكرت . عان : أسير . . يوازعه : يحادثه .
(٣) راث : أبطأ .
(٤) اقفعلت أصابعه : يبست والتوت .
(٥) ننص العيس : ندفع الإبل فى السير . الوجى : الحفى .
(٦) الكبول : جمع كبل وهو القيد .

فتراه يناشد قومه بنى النجار الاعتراف بما كان لوالده ولآبائه معه من المناقب الفاضلة فيهم ، وقد أخذ يفصل من هذه المآثر حتى قال :

وأَنْشُدُكم والبَغْىُ مُهْلِكُ أَهلِهِ ... إذا ما شِتاءُ المَحْلِ هبَّتْ زَعازِعُهْ[1]

إذا ما وليدُ الحَىِّ لم يُسْقَ شربةً ... وضنَّ عليه بالصَّبوح مراضِعُهْ[2]

أَلسنا نَكُبُّ الكُومَ وسْطَ رِحالِنا ... ونستَصْلِحُ المَوْلى إذا قلّ رافِعُهْ[3]

فإن نابَهُ أَمرٌ وقَتْهُ نفوسُنا ... وما نَالنا من صالحٍ فهو واسِعُهْ

فعاد إلى نشدانهم وتذكيرهم بأن إنكارهم لهذه المفاخر من البغى الذى يهلك أهله ، قائلا :

« وأنشدكم والبغى مهلك أهله » وكرر هذا المقطع فى مطالع ثلاثة أبيات من هذه القصيدة ، يقررهم بما كان لآبائه من المآثر ، حتى انتهى إلى نهى قومه عن الكفر بما أسدوه إليهم ، ودعوتهم إلى الاعتراف والثناء بما قدموه لهم ، وأنصف من نفسه ، إذ يقرر أن قومه لو فعلوا مثل ما فعل آباؤه من المعروف لاعترفوا لهم ، ولأثنوا به عليهم دائماً ، ما وعى سامع قولا ، وذلك بقوله :

فلا تَكْفُرونا ما فعلنا إليكُمُ ... وأَثْنُوا به ، والكفرُ بُورٌ بضائعُهْ

كما لو فعلتم مثلَ ذاكَ إليهمُ ... لأَثْنَوْا به ما يَأْثُر القولَ سامعُهْ

## تصحيح بعض الآراء

وقد ظن بعضهم[4] أن تكرار العبارة فى هذه القصيدة من آثار الأسلوب القرآنى ، كما تتكرر بعض الآيات فى بعض السور ، وبنى على ذلك أن هذه القصيدة إسلامية لتكرر عبارة « وأنشدكم والبغى مصرع أهله » بها . والرأى أن هذه القصيدة جاهلية قبل كل شىء ، للغرض الذى تناولته ، والمعانى والألفاظ التى اشتملت عليها ، فلم يبق بعد الإسلام داع لحسان إلى تذكير بنى النجار

---

(١) المحل : انقطاع المطر . الزعازع : الرياح الشديدة .

(٢) الصبوح : الشراب فى الصباح .

(٣) نكب الكوم : نذبح النوق السمينة . رافعه : ماله ، ومن يصلح أمره .

(٤) هو خلدون الكتانى فى « حسان بن ثابت » ص ٥٢ .

بأفعال آبائه وقد أصبح فيهم علماً، وبمكانه من الرسول مكيناً، كما أن القصيدة ليس فيها إشارة إلى الإسلام ولا إلى الرسول . أما تكرار العبارة فشيء لم يستحدثه القرآن ، لأنه جاء فى الشعر الجاهلى، وكان من مألوف القول لدى شعراء ذلك العصر . فمهلهل بن ربيعة أنشأ فى حرب البسوس قصيدته التى مطلعها[١] :

أَليلتَنا بذى حُسُمٍ أَنِيرِى إذا أَنتِ انقضيتِ فلا تَحُورِى[٢]

ومنها :

على أَنْ ليس عَدْلاً من كُلَيْبٍ إذا طُرِدَ اليتيمُ عن الجَزُورِ
على أَنْ ليس عدلاً من كليبٍ إذا رَجف العِضَاهُ من الدَّبُور[٣]
على أَنْ ليس عدلاً من كليبٍ إذا خِيف المَخُوفُ من الثُّغورِ
على أَنْ ليس عدلاً من كليبٍ غداةَ بَلابِلِ الأَمرِ الكبيرِ
على أَنْ ليس عدلاً من كليبٍ إذا بَرَزتْ مُخبَّأَةُ الخُدورِ

والحارث بن عبّاد البكرى يقول فى تلك الحرب أيضاً قصيدته التى مطلعها :

كلُّ شىءٍ مَصيرهُ للزوالِ غيرَ ربّى وصالح الأَعمالِ[٤]

حتى يصل إلى قوله :

قَرِّبا مرْبِطَ النَّعامةِ منِّى لَقِحتْ حربُ وائلٍ عن حِيَال[٥]

فيكرر الشطر الأول من هذا البيت فى أربعة عشر بيتاً متعاقبة .

فيجيبه مهلهل بقصيدة مطلعها :

هل عَرَفْتَ الغَداةَ من أَطلالِ رَهْن ريحٍ ودِيمةٍ هَطَّالِ[٦]

---

(١) الآمالى ٢/١٢٩ .

(٢) ذى حسم : موضع . تحورى : ترجعى .

(٣) رجف : اضطرب بشدة . العضاه : جمع عضه الشجرة ذات الشوك . الدبور : ريح تهب من جهة المغرب . البلابل : الاضطراب .

(٤) شعراء النصرانية : القسم الثالث ص ٢٧١ .

(٥) النعامة : فرسه . الحيال : عدم الحمل .

(٦) شعراء النصرانية – القسم الثالث ص ٢٧٣ .

فإذا بلغ منها إلى قوله :

قربا مربط المُشَهَّرِ منى لكليب الذى أشابَ قَذَالِى[١]

كرر الشطر الأول من البيت فى أربعة عشر بيتاً متصلة كذلك . وحسان نفسه شعره المقطوع بجاهليته يفعل ذلك ، فيقول فى يوم الرَّبيع[٢] :

ويشْرِبُ تَعلمُ أنَّا بهـا إذا التَبَس الأَمْرُ ميزانُها
ويشرب تعلم أنا بهـا إذا قَحَطَ القَطْرُ نُوآنُها[٣]
ويشرب تعلم أنا بهـا إذا خافت الأَوْسُ جيرانُها
ويشربُ تعلم أن النَّبِيـ ـتَ عندَ الهَزَاهِزِ ذُلاَّنُهَا[٤]

وقد كان حسان فى هذه القصيدة كالمستقصى لمحامد آبائه ، فأشبه زهيراً فى استقصائه للممادح ومبالغته فى الثناء ، كما أشرنا إلى ذلك من قبل .

ويبدو منها أن حسان وآباءه قد نالهم من قومهم ما ينال كرام الناس فى كل زمان ؛ على أيدى من ينفسون عليهم من الأقوام ما أوتوا من فضل يكفرونه ، ونعمة يَغَصُّون بها ، وأنه كان مُحَسَّداً ، بَرِماً بالفضوليين والسفهاء ، يشكو جور الصحاب وكيد الكاشحين على ما قدمناه[٥] .

## الهجاء

### أثر الحروب فى نهضة الشعر

كانت نهضة الشعر القديم مصاحبة للحروب ، وكانت أيام العرب داعية إلى قيام نهضة أدبية تؤرث نارها ، وتسجل آثارها ، وكان الفخر والهجاء

---

(١) المشهر : اسم فرسه .
(٢) الديوان رقم ١١٦ .
(٣) نوآنها : أمطارها .
(٤) الهزاهز : الشدائد .
(٥) انظر الباب الثانى «سيرة حسان» من هذا الكتاب وانظر الديوان الأرقام ٧ – ١٣٩ – ١٥٩ .

دعامتى تلك النهضة ، وأبرز فنون الشعر فيها ، وكانت أيام الأوس والخزرج من أشهر حروب الجاهلية ، وقد اقترنت بذكر جماعة من كبار الشعراء الجاهليين والمخضرمين ، ولم يكن لحسان بدّ — وقد ركدت الحرب طويلا فى حَيَّى الأوس والخزرج ، وأخذ الشعراء من الجانبين يتراشقون بالسباب ويترامون بالمثالب — من أن يدافع عن قومه ما يتهضمهم به أعداؤهم ، وكان طبيعيًّا أن يباهى بمجد آبائه ويعلن مآثرهم ، وأن ينال من أعدائهم ويشهر بهم ، ويغزوهم بلسانه إن لم يتهيأ له أن يغزوهم بسيفه وسنانه ، فيجمع فى شعره بين الفخر بقومه وبين هجاء أعدائهم ، فيزيد بذلك من رغمهم وغيظ صدورهم .

## نشأة المناقضات

لذلك لا نعجب إذا رأينا حسان قد دخل فيما دخل فيه معاصروه من المهاجاة والمناقضة ، التى لعلها قد بدأت وجودها الفنى الكامل فى حروب الأوس والخزرج[1] ، إذ لا ينبغى أن نسمى مثلا ما وقع بين امرئ القيس وعلقمة بن عبدة مناقضة ، وإنما هى مباراة اتفق الشاعران فيها على وصف الفرس وإن اختلفت بينهما الحكومة ، ولا ما كان بين امرئ القيس فى مقتل أبيه وبين عبيد بن الأبرص كذلك ، فإنه حوار لم يصل إلى أن يكون مناقضة[2] ، ولم يبلغ شعرهما فى هذه المحاورة إلى ما يمكن أن يسمى قصيدة .

## حسان وقيس بن الخطيم حول يوم سمير

وكان مع حسان بن ثابت عبد الله بن رواحة ، وكان فى طليعة المنافحين عن الأوس قيس بن الخطيم وأبو قيس بن الأسلت ، وكان يوم سُمَير أول أيامهم ، ولم يدركه قيس ولا حسان ، ولكنهما تقاولا بشأنه بعد يوم بُعَاث ؛ فقال قيس ابن الخطيم[3] :

---

(١) الشايب : تاريخ النقائض ٤٦ .

(٢) الشايب : تاريخ النقائض ٤٣ .

(٣) ديوانه ص ١٦ .

رَدّ الخَلِيطُ الجِمالَ فانصَرَفُوا ... ماذا عليهِمْ لو أَنهمْ وَقَفُوا
لوْ وَقَفُوا ساعةً نُسائِلُهُمْ ... رَيْثَ يُضَحِّي جمالَهُ السَّلَفُ[1]
فيهم لَعُوبُ العِشاءِ آنِسَةُ الدَّ ... لِّ عَرُوبٌ يسُوءُها الخُلُفُ[2]
بينَ شُكُولِ النساءِ خِلْقَتُها ... قَصْدٌ ، فلا جَبْلَةٌ ولا قَضَفُ[3]
تَغْتَرِقُ الطَّرْفَ وهِيَ لاهيةٌ ... كأَنما شَفَّ وَجْهَهَا نُزُفُ[4]

فتراه استهل قوله بذكر فراق خلطائه ، وتمنى أن يقفوا له ساعة يسائلهم ، ولا شك فى أنه كان يريد مساءلتهم عن صاحبته ، التى وصفها بأنها لعوب العشاء ، آنسة الدل ، عروب متحببة إلى صاحبها ، وأنها فى اعتدالها وحسن المشاكلة فى خلقتها وسيطة فيما يمتدح من جمال النساء ، وأنها لجمالها تحبس أنظار الناس عليها ، غير متصدية لهم ، ولا محتفلة بهم .

ثم ذكر ما يدل على تنعمها وكفايتها وحور عينيها وجيدها ولين قوامها وحسن مشيتها. مشية الزهراء فى دمث الرمل ، ووصف طرافة حديثها ، وما تخزنه من حسن كلامها ، وأقسم أنه لا يكذبها الحب الذى شف منه الفؤاد ، وانتقل إلى الفخر بقومه بعد ثمانية عشر بيتاً من الغزل الرقيق الجامع ، فقال :

أَبْلِغْ بَنِى جَحْجَبَى وقومَهُمُ ... خَطْمَةَ أَنَّا وَرَاءَهُمْ أُنُفُ[5]
وأَننا دونَ ما يَسُومُهُمُ الـ ... أَعداءُ من ضَيْمِ خُطَّةٍ نُكُفُ[6]
نَفْلِى بحَدِّ الصفيح هامهُمُ ... وفَلْيُنَا هامَهُمْ بنا عُنُفُ[7]

---

(١) يضحى جماله : يطعمها فى الضحى .
(٢) العروب : المتحببة إلى صاحبها .
(٣) شكول : أشكال . قصد : معتدلة . جبلة : غليظة . قضف : نحيلة .
(٤) تغترق الطرف : تشغل نظر الناظر فلا يلتفت لسواها . شف : أسقم . نزف : تسرب الدم ، يريد أن وجهها قليل اللحم يخالط بياضه شىء من الاصفرار . وكانوا يمدحون بهذا .
(٥) بنو جحجبى وخطمة من الأوس . أنف : أهل أنفة وإباء .
(٦) نكف : جمع ناكف أى أبى ممتنع .
(٧) نفلى : نعلو . الصفيح : السيوف . هامهم : رؤوسهم .

إنَّا ولو قَدَّموا التى علِمُوا أكبادُنا من ورائِهِمْ تَجِفُ[١]
لمّا بَدَتْ غُدْوةً جِباهُهُمُ حَنَّتْ إلينا الأَرحامُ والصُّحُفُ[٢]
كَقِيلِنا للمُقَدِّمِينَ قِفُوا عن شَأوِكُمْ والحِرابُ تَخْتَلِفُ[٣]
قال لنا الناسُ :مَعْشَرٌ ظَفِرُوا قلنا : فأَنَّى بقومِنا خَلَفُ

فهو يفتخر بنصره لقومه من بنى جَحْجَبَى وخَطْمة، وأنه يأنف لما يصيبهم به الأعداء من ظلم وضيم ، وأنهم يَعلون هام أعدائهم بحد السيوف ، وإن كان ذلك مما يشق على نفوسهم لما بينهم من الرحم والقرابة ، وأنهم مع ما قدمه لهم هؤلاء من القطيعة والحرب ترق لهم أكبادهم. وتعطف عليهم قلوبهم ، فلما رأوهم حنت إليهم الأرحام ، وتذكروا ما بينهم من العهود . وكأنه فى هذا يمضى وراء الشعراء الذين اشتهروا بين الجاهليين برثاء من قتلوا ، كما يقول عدى بن ربيعة :

ونَبْكِى حين نقتلُكُمْ عليكمْ ونَقْتُلُكُمْ كأَنَّا لا نُبَالِى

ثم انتهى بذكر مطالبته المقدمين على الحرب بالكف عنها ، لما ينشأ عن وقوعها من العداوة والأسى ، وأنهم إذا قال لهم الناس قد ظفرتم لم يسروا ، لأنهم يذكرون بذلك ما أصاب قومهم المنهزمين بهذا النصر ، فيقولون فى حسرة أنَّى لنا خلف من قومنا هؤلاء . وقد رد عليه حسان بقصيدته التى مطلعها[٤] :

ما بالُ عينِى دموعُها تَكِفُ من ذِكرِ خَوْدٍ شَطَّتْ بها قَذَفُ[٥]
بانتْ بها غَرْبَةٌ تَؤُمّ بهـا أَرضاً سوانا ،فالشَّكْلُ مختلِفُ[٦]
ما كنتُ أَدْرِى بوَشْكِ بينِهُمُ حتى رأَيتُ الحُدوجَ قدعَزَفوا[٧]

---

(١) تجف : تضطرب .
(٢) الصحف : العهود .
(٣) الشأو : الغاية .
(٤) الديوان رقم ٢١٦ .
(٥) تكف : تنهمر . الخود : الفتاة الحسنة الخلق الناعمة . شطت : بعدت . قذف : نوى وذية قذف أى بعيدة .
(٦) غربة : نوى وبعد .
(٧) الحدوج : جمع حدج مركب النساء كالمحفة . عزفوا : انصرفوا .

فغادرونى ، والنَّفْسُ غالبُها ما شَفَّها ، والهموم تَعْتَكِفُ[١]

فذكر بكاءه لفراق صاحبته ، التى حملها البعد إلى أرض غير أرضه ، وما كان يدرى بقرب فراقها حتى رأى مراكبها تأخذ فى الرحيل ، فخلفوه لما غلبه من حبها ، والهموم عاكفة عليه من أجلها ، ثم اقتضب الكلام فقال :

دَعْ ذا وعَدِّ القَرِيضَ فى نَفَرٍ يَدْعُونَ مجْدِى ،وَمِدْحتى شَرَفُ

إنْ أَدْعُ فى المجد أَلْقَهُمْ سَلَفاً أهلَ فَعالٍ يبدو إذا وُصفوا

بَلِّغْ عنى النَّبيتَ قافيةً تُذِلُّهُمْ إنهمْ لنا حَلَفُوا[٢]

بالله جَهْدًا لَنَقْتُلَنَّكُمُ قتلاً عنيفاً والخَيلُ تَنْكَشِفُ[٣]

أَو نَدْعُ فى الأَوسِ دعوةً هَرَباً وقد بدا فى الكَتِيبةِ النَّصَفُ[٤]

كُنتمْ عَبيدًا لنا نُخَوِّلُكُمْ مَن جاءنا والعَبِيدُ تُضْطَعفُ[٥]

كيف تَعَاطَوْنَ مجدَنا سفهاً وأَنتمُ دَعْوَةٌ لها وَكَفُ[٦]

شانَكمُ جَدُّكمْ ، وأَكْرَمَنَا جَدٌّ لنا فى الفَعَالِ يَنْتَصِفُ

تَجعلُ من كان المجدُ مَحْتِدَهُ كأَعْبُدِ الأَوسِ كلما وُصِفُوا

هلاَّ غَضِبتم لأَعْبُدٍ قُتِلُوا يوم بُعَاثٍ أَظَلَّهُمْ ظَلَفُ[٧]

نقتلُهُمْ والسيوفُ تَأْخُذُهُمْ أَخذًا عنيفاً وأَنتمُ كُشُفُ[٨]

وكم قَتَلْنا من رائِسٍ لكُمُ فى فَيْلَقٍ يُجْتَدَى له التَّلَفُ[٩]

---

(١) شفها : أسقمها . تعتكف : تدوم وتلح .

(٢) النبيت : حى من الأوس .

(٣) تنكشف : تنهزم .

(٤) النصف : المرأة الوسط فى سنها .

(٥) نخولكم : نجعلكم خدما . تضطعف : تستضعف .

(٦) الدعوة والدعاوة بالفتح والكسر فيهما اسم مصدر من ادعى الشىء أى زعمه حقاً أو باطلا . الوكف : الميل والجور والعيب والإثم ، أى أنتم أهل ادعاء جائر آثم .

(٧) بعاث : آخر أيام الأوس والخزرج . ظلف : شدة وحاجة .

(٨) كشف : منهزمون .

(٩) يجتدى له التلف : يطلب له الهلاك .

ومن لئيمٍ عبدٍ يُحالفُكُمْ ليستْ له دِعْوَةٌ ولا شَرَفُ (١)
إنَّ سُمَيْرًا عبدٌ طَغى سفَهاً أجدادُهُ أعبُدٌ لنا تَلِفُ (٢)
بالكاهِنَيْنِ الذِينَ جَدُّهُمُ عبدُ العَصَا واللئامُ إن أسِفُوا (٣)

فحسان هنا قد خرج من الغزل إلى غيره من غرضه فى القصيدة اقتضاباً — ومن غير تمهيد ولا توطئة — بأسلوب خاص يصدرونه دائماً بقولهم « دع ذا ، وعد القريض فى كذا . وأشباههما » إذ صرف عنان القول إلى الفخر بأولئك الذين يدعون مثل ماله من المجد من قومه ، ولهم فى الفعال والمجد قدم سابقة ، والذين يعرفون إذا وصفوا بمالهم من مآثر ، ذاكراً أن مدحه إياهم شرف لهم ، فهو لم ينس أن يفخر بشعره ، على ما جرت به عادة الشعراء يومئذ من امتداحهم لقوافيهم ، كما فعل فى موضع آخر بقوله :

وقافيةٍ عَجَّتْ بليلٍ رَزِينَةٍ تَلَقَّيْتُ من جوِّ السماءِ نزولَها

وكما قال الأعشى :

وغريبةٍ تأتى الملوكَ حكيمةٍ قد قلتُها ليقال :من ذا قالها ؟

وكقول الحُصَين بن الحُمام المُرِّى :

وقافيةٍ غيرِ إنسِيَّـــةٍ قَرَضْتُ من الشعر أمثالَها
شَرُودٍ تَلَمَّعُ بالخافِقَيْـ ـنِ .إذا أنشِدَتْ قيل : من قالها ؟

وعاد إلى شعره وقافيته التى يذكّر بها النبيتيين من الأوس إذلالها لهم على توعدهم للخزرج ، وحلفهم بتقتيلهم عند انكشافهم وفرارهم ، أو بدعوة الأوس للهرب وقد عم الفزع و بدت النساء بين المتحاربين ، فجعل قسيم تقتيل الخزرج أن تخلى الأوس ديارها وتفارق أوطانها ، إذا لم تبرّ أيمانهم بإيقاع الشر بأعدائهم ، وبالغ فى قسوة الهزيمة والفرار بظهور نسائهم مع كتائبهم ، ومشاركتهن لهم فى عار الهزيمة

(١) ليست له دعوة : ليس له ما يدعيه من المحامد .
(٢) تلف : هالك مهدر .
(٣) الكاهنان : قبيلتان من اليهود هما قريظة والنضير .

والفرار ، وجعل يقرعهم بأنهم كانوا عبيداً لهم يهبونهم من يشاءون . وأنكر عليهم تطاولهم بادعاء ما ليس لهم من مجد قومه ، وقد شانهم لؤم أجدادهم ، على حين كرم الخزرج بمجد أجدادهم ، الذى يتضاءل إزاءه كل مجد . حتى يصير أصحابه بمنزلة الأوس دقة أصل ورقًا ولؤماً .

ثم ترقى فى ذمهم بما أصابهم يوم بعاث ، وفرارهم عن قتلاهم والسيوف تأخذهم أخذاً عنيفاً ، وما قتل قومه إذ ذاك من رؤسائهم ومن حلفائهم فى جيش منحوه الهلاك ، ثم التفت إلى ذكر سُمَير الذى كان سبباً فى أول حرب اشتعلت نارها بين القبيلتين ، فوصفه وأجداده بالعبودية ، كما ذم قريظة والنضير لمعاونتهم الأوس فى الحرب ، ووصفهم بالضعة واللؤم حين يقدمون المعاذير .

ونعود إلى ذكر ما فى القصيدتين مما يجمل بنا أن نعرض له بالتحليل والنقد ، فنرى أن قصيدة قيس قد يهش لها شعور القارئ والسامع لغلبة الغزل على أبياتها . والشعراء فى الجملة يتأنقون فى هذا الفن بحسن اختيارهم لما يؤلفون به صورهم من الكلمات البالغة إلى نوع من الدماثة والرقة ، ولما يتضمنه الغزل من المعانى التى تلذ بها الأنفس ، وترتاح إليها القلوب . ولا نكاد نجاوز الحق إذا قلنا إن قيساً أشعر فى قصيدته من حسان ، ولا يمنعنا ذلك من الاعتراف بأن جانباً من تقصير حسان راجع إلى أن غزله فى أبياته الأربعة أقل فى قيمته الفنية من غزل صاحبه ، إذ لم يأت فيه بمثل ما أتى قيس فى أبياته الأربعة الأولى من الكلمات المشاكلة لقوله « لعب العشاء ، وآنسة الدل ، وعروب » وهى بلا جدال من أجمل ما يرصع به الغزل ، فى جرس ألفاظها وجمال معانيها . وقد استغرق غزل قيس ثمانية عشر بيتاً ، ترقق فيها ما شاء ، حتى أوشك ألا يترك من محاسن المرأة شيئاً إلا ألم به ، فى عذوبة واضحة ، وغزل رقيق ، لعل المطالع يكتفى بالنظر فيه عن الإشارة إلى ما حواه من حسن ، ولأن حسان لم يشفع له عندنا ما قاله فى غير الغزل من الهجاء والفخر ، لقلة عنايته بإزالة الغموض عن نفسه ، وبعدم تحرزه من التكرار ، وقلة احتفائه بالموجع من الهجاء ، فيكاد هجاؤه فى هذه القصيدة ينحصر فى كلمة واحدة كررها فى ثمانية مواضع ، وهى كلمة « عبد وعبيد وأعبد » . وهو وإن كان فى تسميته أعداءه عبيداً يعلن عن تعاليه ، ويعد متطولا يضع نفسه فى منازل الملوك ومراتب

العواهل من أهل الشرف والمجد ، غير أنه يعد مخفقاً مقلا من العلم بالمثالب ، ومقلا من العلم بالأساليب التى تكون أغيظ للمهجو من مثل هذا الشتم الصريح ، وبما ينبغى أن يتبعه الشاعر فى فنون الهجاء من إبراز المهجو فى معارض الاستخفاف والتهكم ، مع التوقى من المواجهة بالعيب والشتم .

وفى هذا يقول القاضى الجرجانى : « فأما الهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت ، وما اعترض بين التصريح والتعريض ، فأما القذف والإفحاش فسباب محض . وليس للشاعر فيه إلا إقامة الوزن وتصحيح النظم »[1]. هذا إلى أنهم كانوا أكثر ما يتهاجون بالنقص من صفات المروءة ، والعجز عن اكتساب المحامد ، والغمز بالأرومات والأحساب ، وهو ذلك اللون الذى عناه خلف الأحمر بقوله : « أشد الهجاء أعفه وأصدقه »[2] .

وهو غامض فى قوله : « يدعون مجدى ومدحتى شرف » وغامض فى بيته :

أو ندع فى الأوس دعوة هربا وقد بدا فى الكتيبة النصف

وغامض فى قوله :

إن سميراً عبد طغى سفهاً أجـداده أعبد لنا تلف

للفصل بين الموصوف وهو عبد وبين صفته وهى « تلف » بتركيب باعد بينهما ، كما أن قوله « بالكاهنين » لا يسهل رده إلى ما يتصل به من الكلام السابق ، وإنما تصيب المعانى مواقعها من النفس حين تصيب الألفاظ مواقعها من العبارة ، فلا يتبدد أثرها وتذهب بهجتها فى ثنايا البحث عن قرائنها ، وما يريده القائل منها .

كما أن بعض قوافيه وألفاظه مستكرهة ، عسرة النطق ، ككلمة « تضطعف » وبعضها غريبة « كالوكف والظلف وتلف ورائس » .

ولم يكن قيس أشعر من حسان فيما وصفنا به غزله من السلاسة والرقة والاستيعاب فحسب ، بل كان أشعر منه أيضاً وألطف منهجاً وأرق حاشية فيما تناول به بنى عمه من الخزرج ، فمسهم به مساً رفيقاً متنزهاً عن صريح الشتم ، مع الاجتهاد فى إبداء الحدب والتعطف والإرعاء على أواصر القرابة والرحم ، والرغبة فى تجنب ويلات الحرب وما تؤرثه من العداوات ، وما تحدثه من فقدان الأموال

---

(١) الوساطة ٢٧ .

(٢) العمدة ٢ / ١٣٩ .

والأنفس والثمرات ، حتى يكاد كلامه يكون بالعتاب أشبه منه بالهجاء .

**حسان وأبو قيس بن الأسلت حول يوم معبس ووضرس**

ولحسان قصيدة مطلعها [١] :

ألا أبلغ أبا قيسٍ رسولا إذا ألقى لها سمعاً تُبينُ

يعير أبا قيس فيها ما أصاب قومه فى ذلك اليوم . ثم ينتهى إلى لون من الهجاء المشوب بالفخر ، فيقول :

قتَلْتُمْ واحدًا منَّا بألْفٍ هَلاَ لِلّهِ ذا الظَّفَرُ المُبِينُ

وذلكَ أنَّ ألْفَكُمُ قليـــلٌ لواحِدنا . أجَلْ أيضاً وَمِينُ [٢]

فلا زِلتُمْ كما كنتمْ قديماً ولا زِلنا كما كُنَّا نَكُونُ

يُطيفُ بكمْ من النجارِ قومٌ كأُسْدِ الغابِ مَسْكَنُها العَرِينُ

كأنَّا إذ نُسَامِيكم رِجالاً جِمالٌ حينَ يَجْتَلِدون جُونُ [٣]

فذكر أن قوم أبى قيس ليسوا بأكفاء لهم ، وأن الواحد من الخزرج بألف منهم ، وفى قوله : « هلا لله ذا الظفر المبين » بداوة مناسبة لمقام الكلام ، وهى جارية مجرى التهكم ، كأنه يستعظم ذلك الظفر عليهم ، وهو حقير هين . ثم استقل ذلك عليهم فى البيت التالى ، وختمه بعبارة ركيكة ، غير منسجمة الألفاظ ، وفيها ضعف بذكر كلمة « أيضاً » ، وزادها ضعفاً مجيئها بعد « أجل » ، وفيها ضعف آخر باختصار كلمة مئين بتسهيل همزتها وتحويلها إلى « مين » . .

وأكثر النقاد يرون أن كلمة « أيضاً » ليست من كلمات الشعر ، وأنها لم ترد إلا فى موضعين اثنين استحسنها فيهما أصحاب الذوق ، أولهما قول أشْجَع السُّلَمِى :

جاء الشتاءُ وما عندى له وَرِقٌ مما وهبتَ ولا عندى له خِلَعُ [٤]

كانت فأوْدَى بها جودٌ وَلِعْتُ بهِ وللمساكين أيضاً بالنَّدَى وَلَعُ [٥]

---

(١) الديوان رقم ١١٧ (٢) مين : أصلها مئين سهلت همزتها وحذفت إحدى الياءين .

(٣) رجالا : راجلين غير راكبين . يجتلدون : يقتتلون . جون : جمع جون وهو الأسود أو الأبيض والأنسب هنا الأسود .

(٤) الورق : الفضة . الخلع : جمع خلعة ما يهدى من الملابس .

(٥) أودى بها : أضاعها وأذهبها .

والآخر قول الشبْلِيِّ فى الحمام :

ربّ وَرْقاءَ هَتُوفٍ بالضُّحا ذاتِ شَجْوٍ صَدَحتْ فى فَنَنِ
ذكَرَتْ إلْفاً ودهراً سالفاً فبكتْ حزناً فهاجتْ حَزَنِى
فبُكائى ربمــا أَرَّقَها وبُكاها ربمــا أَرَّقنِى
ولقد تَبْكِى فما أَفهَمُهَا ولقد أَبكِى فما تَفْهَمُنِى
غيرَ أَنِّى بالجَوَى أَعرفُها وهى أَيضاً بالجَوَى تَعْرِفُنِى

**حسان والنابغة**

ثم عادحسان فدعاعليهم بأن يظلوا كما كانوا فى مهانتهم وضعتهم من قديم، وأن يظل هو وقومه فيما هم فيه من عز ومنعة ، يطيف بهم من قومه بنى النجار حماة كأسد الغاب ، ثم وصف قومه بأنهم حين يمشون إلى الأعداء فى الحرب يجالدونهم كالجمال السود ، ولم يستطع أن يصل فى ذلك إلى النابغة إذ يقول :

إذا استُنْزِلوا عنهن للطَّعْن أَرْقَلُوا إلى الموتِ إرْقالَ الجِمالِ المَصاعِب[1]

فإن النابغة استغنى عن كلمة « رجالا » التى يظهر سوء موقعها فى البيت بقوله « استنزلوا عنهن » أى عن ظهور الخيل ، ونص على أن ذلك كان للطعن ، كما استغنى بمقطعه الذى وصف فيه الجمال بما يوصلها إلى الغاية من الفحولة وصعوبة القياد ، فذكر « المصاعب » مكان « جون » التى أتى بها حسان ، فلم تفد شيئاً سوى أن الجمال سود . وسواء أكان لونها السواد أم غيره فليس ذلك بمؤد أبداً إلى مثل ما تؤديه كلمة « المصاعب » فى بيت النابغة . ولايخفى ما بين كلمتى « نساميكم » لحسان و « أرقلوا إلى الموت » للنابغة من البون البعيد فى هوان الكلمة الأولى ، وقلة مناسبتها وغنائها فى المعنى المراد منها ، وقوة الكلمة الثانية ، وشدة دلالتها على ذلك المعنى ، لأن المساماة ليست نصًّا فى الحرب والمجالدة ، إذ أنها يمكن أن تدل أيضاً على المباراة فى الكرم والبيان وسائر المفاخر الأخرى . وأما قوله « أرقلوا إلى الموت » فهو بلوغ إلى الغاية من تصوير البسالة والإقدام فى الحرب ، وهول المزاحفة وشدة

(١) أرقلوا : أسرعوا . الجمال المصاعب : الصعبة القياد لفحولتها .

الهجوم على الموت . وللذوق مكان فى إدراك ما فى بيت النابغة من جمال العبارة وبراعة التصوير .

وقد وصل ذلك بمنّه على الأوس فى إكرامهم وسكوته عنهم، استحياء من مشاتمهم ، وصوناً لعرضه الذى وصفه بأنه « حسب سمين » . وفى إكرامه لنسائهم أن يذكرهن بسوء لأنهن عشيرته ورهطه ، فقال :

وقد أكرمتُكُمْ وسكَنْتُ عنكمْ سَرَاةَ الأَوسِ لو نَفَعَ السُّكُونُ
حياءً أَنْ أُشاتمكمْ ، وصَوْناً لعِرْضِى ، إنه حَسَبٌ سَمِينُ
وأكرمتُ النساءَ وقلتُ رَهْطِى وهذا حينَ أَنْطِقُ أَو أُبِينُ

ويبدو أن القافية قد حملته على تفضيل وصف الحسب بأنه سمين ، وأليق منها كلمة رفيع أو شريف أو كريم أو نحو ذلك ، كما قال غيره :

ورثنا المجدَ عن آباءِ صدقٍ أَسأْنا فى ديارِهُمُ الصَّنِيعَا
إذا الحَسَبُ الرفيعُ تَوَاكَلَتْهُ بُنَاةُ السوءِ أَوشك أَن يَضِيعَا

وكان قوله فى ختام قصيدته «وهذا حين أنطق أو أبين » بالغاً غاية الضعف والتهافت ، وفضلا يستغنى الكلام عنه ، وبخاصة مع هذا التكرار الظاهر فى قوله « أنطق أو أبين » وهما بمعنى . وتصدير الشطر بقوله « وهذا » ظاهر الركاكة والحشو .

### حسان وقيس بن الخطيم فى يوم السرارة

ولما اقتتلت الأوس والخزرج يوم السَّرَارَة ، ثم تولت الأوس إلى دورها ، قال قيس بن الخطيم قصيدته التى مطلعها[1] :

تَرُوح مِن الحسناءِ أَم أَنتَ مُغْتَدِى وكيف انطلاقُ عاشقٍ لم يُزَوَّدِ

بدأها بالنسيب ، وأكثر فيها من الحكم وعرض القيم الأخلاقية ، ولم يتعرض فيها لفخر أو هجاء ، فأجابه حسان بقصيدة كلها فخر وهجاء مطلعها[2] :

---

(١) ديوانه ص ٢٠ .
(٢) الديوان رقم ٢ .

لَعَمْرُ أَبيكِ الخيرَ يا شَعْثَ ما نبا عَلَىّ لسانى فى الحروب ولا يَدِى

بعد أن فخر بلَسَنه وأيْده ، وصرامة لسانه وسيفه ، وأن لسانه يبلغ من ذلك فوق ما يبلغ سيفه ، وذكر جرده فى العسر واليسر ، وحياءه وحفاظه وجلده ورعايته للمحتاج ، وقناعته بعد ذلك باليسير ، وإيقاده للنار فى ليلة الريح ، وضربه رءوس الأعداء ، وتركه للنقائص ، وأنه حلو للصديق مُرٌّ على العدو ، كثير الأسفار لا تستريح مطاياه ، وبعد أن تحدث عن زيارته للنعمان بن المنذر ، وما لقيه لديه ، اتجه إلى قيس بن الخطيم بالهجاء فقال :

ولا تَعجَلَنْ يا قيسُ واربَعْ ، فإنما قُصاراك أن تُلْقَى بكل مُهَنَّدِ[1]
حُسامٍ وأَرْماحٍ بأَيدى أَعِزَّةٍ متى تَرَهمْ يابن الخَطيمِ تَبَلَّدِ
ليوثٌ لدى الأَشبال مُحْمَى عَرينُها مَدَاعِيسُ بالخَطِّىِّ فى كل مَشْهَدِ[2]
فقد ذاقت الأَوسُ القتالَ وطُرِّدَتْ وأَنت لدى الكُنَّاتِ كلَّ مُطَرَّدِ[3]
تُناغِى لدى الأَبوابِ حُورًا نواعِماً وكَحِّلْ مآقيكَ الحِسانَ بإِثْمِدِ[4]
نَفَتْكمْ عن العلياءِ أُمٌّ لئيمةٌ وزَنْدٌ متى تُقْدَحْ به النارُ يَصْلَدِ[5]

فهدده بسيوف قومه الذين فخر بشجاعتهم وعزتهم وحمايتهم حماهم ، وهجاه بالجبن وملازمة النساء وهم يذيقون الأوس مر القتال والتطريد ، وهو ما هجا به أبا قيس بن الأسلت فى قصيدته عن يوم معبس ومضرس ، وسخر من قيس سخرية مرة حين طالبه بأن يكحل مآقيه ، وذلك معنى فطرى ما تزال العامة تردده إلى اليوم فى مثل هذه الحال . ثم انتهى إلى تعييره بضعة قومه التى ورثوها عن أم لئيمة ، وعزيمة مفلولة كليلة ، وهو هجاء يتمشى فى جملته مع منهج الجاهليين . من الهجو بالمثالب التى يعترف بها العصر ، والانتقاص من الفضائل النفسية .

---

(١) اربع : قف . قصاراك : جهدك وغايتك وآخر مداك . المهند : السيف .
(٢) مداعيس : طعانون . الخطى : الرمح المنسوب إلى الخط . موضع به الرماح الجيدة .
(٣) الكنات : جمع كُنة وهى السقيفة بين يدى البيت .
(٤) تناغى : تغازل . الإثمد : الكحل .
(٥) يصلد : لا يحدث ناراً .

### حسان والفطرة الهجاءة

وهكذا نرى حسان يطيل الفخر حين يقصد إلى الهجاء . كأن سبيله إلى الحط من عدوه ذلك الزهو والاستعلاء ، وكأنه كان يحس من نفسه تخلفاً عن بلوغ غرضه بالهجاء ، فكان يستعين عليه بالفخر العريض ، وربما أيد هذا الرأى ما ذكروا من أنه قال للخنساء يوماً : اهجى قيس بن الخطيم . قالت : لا أهجو أحداً أبداً حتى أراه . فجاءته يوماً فوجدته فى مشرُقة[1] ، ملتفًّا فى كساء له ، فنخسته برجلها وقالت : قم ، فقام . فقالت : أدبر ، فأدبر ، ثم قالت : أقبل ، فأقبل . قال والله لكأنها تعرض عبداً تشتريه . ثم عاد إلى حاله نائماً . فقالت : والله لا أهجو هذا أبداً[2] .

### صور من هجائه

وكانت مزينة مع الأوس فى حربها تقاتل الخزرج ، وكانت أيضاً قد أسرت أباه ثابتاً ، فهجاها بقوله[3] :

جاءت مُزينة من عَمْقٍ لتَنصرهم ... انجى مزينة فى أَسْتاهِكِ الفُتُلُ[4]

فكلُّ شىءٍ سوى أَن تَذكروا شرفاً ... أَو تَبلغوا حَسَباً من شأنكم جَلَلُ[5]

قومٌ مَدَانِيسُ لا يَمْشِى بعَقْوَتِهِمْ ... جارٌ ، وليس لهم فى مَوطِنٍ بَطَلُ[6]

وبقوله[7] :

رُبَ خالةٍ لكَ بينَ قُدْسَ وآرَةٍ ... تحتَ البشَام ورُفْغُها لم يُغْسَلُ[8]

---

(١) المشرقة : موضع القعود بالشمس فى الشتاء .

(٢) الأغانى ٣ / ١٠ طبع دار الكتب .

(٣) الديوان رقم ٦٩ .

(٤) عمق : واد بالطائف ، وموضع أو ماء ببلاد مزينة . الأستاه : الأدبار . الفتل : جمع فتيل .

(٥) جلل : هين .

(٦) العقوة : ما حول الدار والمحلة . مدانيس : قذرون .

(٧) الديوان رقم ٧٠ .

(٨) قدس وآرة : جبلان ببلاد مزينة . البشام : شجر عطر الرائحة . الرفغ : أصل الفخذ .

تسعى وترقصُ حولَ أيرِ حمارِها حتى يكادَ يَمُسُّها أو يَفعلُ

فهذا لون جديد من هجائه الموجع المفحش ، رسم فيه صورة هزلية منكرة عارية ، وجعل هذه الصورة تدب فيها الحياة بما منحها من السعى والحركة ، وضمن لها بذلك أن تحيا وأن تذيع .

وقال فى هجاء مزينة أيضاً[١] :

مزينةُ لا يُرى فيها خطيبٌ ولا فَلْجٌ يُطاف به خَصيبُ[٢]
ولا مَن يَملأُ الشِّيزَى ويَحْمِى إذَا ما الكلبُ أَجْحَرَهُ الضَّريبُ[٣]
رجالٌ تَهلِك الحسناتُ فيهم يَرَوْنَ التيسَ كالفَرَسِ النجيبِ

فجعلهم لخستهم وتضييعهم ليسوا ذوى بصر بالخير ، تهلك الحسنات فيهم ، وهو تعبير جميل عن معنى جميل ، إذ يستوى عندهم التيس والفرس النجيب ، وهو هجاء بلغ فى حسن لفظه ومعناه ، وجمال سبكه ، ونيله من المهجو ما يتوخاه الشعر الهجائى من غاية ، إلا أن به إقواء بمخالفة حركة الروى فى البيت الثالث لما بنى عليه الشعر .

## شعر جاهلى

ولما وقع بينه وبين زوجه شعثاء الأسلمية النزاع هجاها وهجا قومها . فأفحش إفحاشاً ناله من أذاه مثل ما نالها ونالهم ، إذ يقول[٤] :

قد رَغِبوا زَعَمُوا عنِّى بأُختهمُ وفى الذُّرَا نسبى والمجدِ مرفوعُ
ويلُ امِّ شعثاءَ شيئاً تستغيثُ به إذا تَجَلَّلَها النَّعْظُ الأَفاقيعُ[٥]

---

(١) الديوان رقم ٧١ .
(٢) الفلج : النهر الصغير ، والسخى .
(٣) الشيزى : نوع من القصاع . أجحره الضريب : ألجأه الجليد إلى جحره .
(٤) الديوان رقم ٧٢ .
(٥) تجللها : ركبها . النعظ : الشبق . الأفاقيع : المسموع . ولعل الأفاقيع جمع أفقوع . فى شرح القاموس : « ويقال هذا أفقوع طرثوث وغيره مما تتفقع عنه الأرض أى تنشق » فهناك شبه فى حركة الانشقاق .

كأنه فى صَلاها وهى باركةٌ ذِراعُ آدَمَ من نَاطَاءَ منزوعُ[١]

وصاحب « الهجاء والهجاءون » يعتبر هذه القطعة من شعر حسان فى إسلامه[٢]. وهى خالية من الأمارات الدالة على ذلك . فضلا عن أنها أشبه بشعره وخلقه الجاهليين ، فإنك لو تتبعت هجاءه فى الإسلام لوجدته لم يهج بعد إسلامه إلا أعداء دينه ورسوله ، وذهبت بذهاب الجاهلية المهاجاة للأسباب القبلية والشخصية .

وانظر إلى تلك الصورة الهازلة ، وإلى لطف الكناية . وبراعة التوصل إلى ما أراد فى هجاء جذام بقوله[٣] :

لَعَمْرُ أَبِى سُمَيَّةَ ما أُبالى أَنَبَّ التيسُ أَم نطقت جُذَامُ[٤]
إذا ما شاتُهُمْ وَلَدَت تَنَادَوْا أَجَدْىٌ تحتَ شاتِك أَم غلامُ

ثم انظر كيف هجا قبيلة مذْحِج ، فهكم بها تهكماً مرًّا باقى الأثر ، فى بيتين يسريان لخفتهما مسرى النسيم ، فقال[٥] :

بَنَى اللؤْمُ بيتاً على مَذْحِجٍ فكان على مَذْحِجٍ تُرْتُبَا[٦]
ولو جَمَعَتْ ما حوتْ مَذْحِجٌ من المجد ما أَثقل الأَرنبا

## إفحاشه وتعليله

ولعلنا الآن فى حل وقد رأينا كيف يميل حسان إلى الإفحاش فى هجائه بذكر العورات . والتصريح بما ينبغى ستره ، ومخالفته فى ذلك المنهج العام لأهل الجاهلية

---

(١) الصلا : ما بين الوركين إلى أصل العجز . آدم : أسمر فإذا اعتبرناها آرم بالراء فالآرم الذى يفتل فتلا شديداً ، وكلاهما صالح هنا . ناطاء : لم نجد لها معنى فلعلها أنطاء جمع نطاة وهو الشمروخ .

(٢) انظر « الهجاء والهجاءون » ص ٢٢١ .

(٣) الديوان رقم ٢٦ .

(٤) نب التيس : صوت عند السفاد .

(٥) الديوان رقم ١٩١ .

(٦) ترتباً : مقيما لازماً .

من أن نعود فنقرر ما أشرنا إليه فيما سلف ، من أن ذلك ربما دل على علة نفسية ، وغلبة النزعة الجنسية ، مع عجزه عن الاستجابة لها ، فكان ذلك منه محاولة لإرضائها[١] .

## الغـــزل

### غزل حسان يمثل جانباً من حياته

قدمنا أن شعر حسان فى جاهليته كان سجلا لما بين قومه من نزاع وحرب ، ومصوراً لما لقيه فى رحلاته خارج المدينة ، ومعرضاً لحياة النعيم واللهو والغزل التى استمتع بها فى شبابه ، وقد سقنا من فخره وهجائه ما يصور الحياة العامة من حوله إذ ذاك ، وسنحاول الآن أن نلم بما يصور حياته الخاصة من شعره فى الغزل ، ووصف مظاهر الحياة ومباهجها التى تأثر بها فى المدينة وفيما وراءها ، وتلك إحدى الأوائل من قصائده التى يترجح أنها من شعره فى المدينة . وهى تمثل ما سلف من الجمع بين الفخر والوصف والغزل . قال[٢] :

إن النَّضِيرَةَ رَبَّةَ الخِدْرِ أَسْرتْ إليك ولم تكنْ تَسْرِى
فوقفتُ بالبَيْداءِ أسأَلُها أَنَّى اهتديتِ لمنزل السَّفْرِ

### صواحبه ومدى علاقته بهن

فذكر النضيرة ، وهى إحدى نساء ثمان[٣] ألَمَّ بذكر أسمائهن فى ست عشرة[٤] قطعة من شعره ، وليس فى الديوان ولا فيما تناولنا من المراجع ما يدل على أنه تزوج من هؤلاء النسوة سوى شعثاء الأسلمية ، وعمرة الأوسية ، ولم نستطع أن نجد لغير هاتين تعريفاً ، حتى كاد يترجح عندنا أنهن إما أن يكن معشوقات له ، وإما أن

---

(١) انظر ص ٢٢٢ من هذا الكتاب .
(٢) الديوان رقم ٨ .
(٣) هن : شعثاء ، والنضيرة ، وليلى ، وأم عمرو ، وعمرة ، وسعدى ، ولميس ( أم الوليد ) . وزينب .
(٤) هى بالديوان بالأرقام الآتية : ١ و ٤ و ٨ و ١٠ و ١٥ و ١٨ و ٢٤ و ٢٨ و ٢٩ و ٨٦ و ١٣١ و ١٣٨ و ١٣٩ و ١٥٢ و ١٥٥ و ١٧٥ .

يكن من القيان اللاتى التقى بهن فى بيوت الشراب ، أو تكون هذه الأسماء كناية عن بعض من لا يريد التصريح بأسمائهن ، أو يكن موزعات بين ذلك كله .

ثم رَجع الحديث إلى النضيرة ، بعد أن عرض مفاخره التى جبل الناس على اتخاذها وسيلة يتزينون بها عند المرأة ، ويبتغون بها المنزلة لديها ، فقال :

أَنَضِيرُ ما بينى وبينكمُ ... صَرْمٌ وما أَحدثتُ من هَجْرِ (١)
جُودى فإن الجودَ مَكْرُمَةٌ ... واجزِى الحسامَ ببعض مايَفْرِى (٢)
وحلَفتُ لا أَنساكمُ أَبدًا ... مارَدَّ طَرْفَ العينِ ذو شُفْرِ (٣)
وحلفتُ لا أَنسى حديثَك ما ... ذَكَرَ الغَوِىُّ لَذاذةَ الخَمْرِ (٤)
ولأَنتِ أَحسن إذ بَرَزْتِ لنا ... يومَ الخروجِ بساحة القصرِ
من دُرَّةٍ أَغْلَى الملوكُ بها ... مما تَرَبَّبَ حائرُ البحرِ (٥)
ممكورةُ الساقين شِبْهُهُما ... بَرْدِيَّتَا مُتَحَيِّرٍ غَمْرِ (٦)
تَنْمِى كما كانت أُرُومتُها ... بمَحَلِّ أَهلِ المجدِ والفخرِ (٧)
يَعْتادُنى شوقٌ فأَذكرُها ... من غير ما نسبٍ ولا صهرِ (٨)
كتذَكُّرِ الصادى وليس له ... ماءٌ بِقُنَّةِ شاهقٍ وعْرِ (٩)
ولقد تُجالسنى فيمنعُنى ... ضِيقُ الذراعِ وعِلةُ الخَفْرِ (١٠)

---

(١) الصرم : الهجر .
(٢) يفرى : يقطع .
(٣) الشفر : أصل منبت الشعر فى الجفن ، فذو الشفر : الجفن .
(٤) الغوى : الضال .
(٥) تربب : ربى وحفظ . حائر البحر : المكان العميق منه .
(٦) ممكورة الساقين : حسنة امتلائهما واستدارتهما . متحير غمر : كثير الماء .
(٧) تنمى : ترتفع وتنسب . الأرومة : الأصل .
(٨) يعتادنى : يعاودنى .
(٩) قنة : قمة .
(١٠) الخفر : الحياء .

لو كنتِ لا تَهْوَيْنَ لم تَرِدِى أو كان ما تَلْوِينَ فى وَكْرِ[1]
لأَتيتُهُ لا بدَّ طالبُـهْ فاقْنَىْ حياءَك واقبلى عُذرى[2]
قل للنضيرة إن عَرَضْتَ لها ليس الجوادُ بصاحب النَّزْرِ[3]

**قلة حذقه بأساليب الغزل**

وحسان هنا لم يَجر على المنهج المألوف عند الشعراء الغزلين ، فى تباعدهم عن مثل هذه الجفوة فى مخاطبة المرأة ، حين سوّى بينه وبينها فى المصارمة فى الشطر الأول من هذه الأبيات ، وحين جعل نفسه مصدراً للهجر الذى لم يُغن عنه نفيه إياه فى الشطر الثانى ، فإن ذلك إنما ينبغى أن ينسب إلى المرأة . ألا قال كما يقول امرؤ القيس :

أفاطمُ مهلاً بعضَ هذا التَّدلُّلِ وإن كنتِ قد أزمعْتِ صَرْمِى فأَجْمِلِى

ثم هو يطلب إليها أن تجود له بوصالها ، وأن تجزيه بما يزيده مضاء فى حبها ، ولكنه يعقب ذلك بحكمة يذكرها أو مثل يضربه على أن الجود مكرمة ، وليس هذا موضع ذاك ، لأن المرأة يمدح منها البخل . ويقسم ألا ينساها ما طرفت العين ، ولا ينسى حديثها الذى تشبه لذاذته الخمر ، ويقول : إنها إذ برزت يوم الخروج بساحة القصر كانت أحسن من درة يغالى فيها الملوك من خير ما رباه البحر فى أعماقه وضن به . واختياره التعبير بيوم الخروج ممائل على جاهليته لما جاء به القرآن فى قوله تعالى : « ذلك يوم الخروج » ، ثم شبه ساقيها ببرديتين نبتتا فى خصب وماء غمر ، فامتلأ عودهما والتف ، وتحدث عن أصلها العريق فى مجده ومفاخره ، وأن الشوق إليها يعتاده من غير أن يكون بينهما نسب أو صهر ، والواقع أن خُلّة الخليل أقوى فى نظر العشاق من علاقة الصهر والنسب ، وقد أحسن الأداء فى تشبيه نفسه حين يتذكرها بالظمآن الذى لا يجد ماء فى قمة الجبل الوعر ، وأعلن

---

(١) تلوين : تمنعين . الوكر : عش الطائر .
(٢) اقنى حياءك : الزميه .
(٣) النزر : القليل .

عن حيائه وعفته حين قال إن خفره وضيق ذرعه قد منعاه مجاذبتها ما يتبادله العشاق فى خلواتهم من المتاع والحديث ، والخفر مع هذا أليق بالمرأة منه بالرجل ، وازداد بعداً عن مناهج الغزل والغزلين بقوله : لو كنت لا تهوين لم تردى ، إذ أن ذلك القول مخجل للرجل فضلا عن المرأة ، فالمرأة تكره أن تعرف بالميل والتودد ، وتحب أن توصف بالتجنى والتمنع ، ويستعذب منها الدل والعذل ، ومواجهة حسان صاحبته بأنها هى التى تهواه ، وأن هواها هو الذى ساقها إليه مفرط فى الجفاء والخطأ ، داع إلى اشمئزازها ولومها نفسها ، وامتناعها عليه بعد ذلك ، وهذا كله يدل على قلة حذقه بالغزل ، ثم عطف على ذلك شدة طلبه لما تمطله به من وصالها واو كان فى وكر ، فناقض بذلك نفسه فيما ادعى من حيائه وضيق ذرعه . على أن الوكر ليس مضرب المثل فى المنعة وصعوبة المطلب ، كعريسة الأسد ووجار الضبع ، لأنه لا يعدو أن يكون عش الطائر الذى قد يتناوله الصبيان ، ولعل القافية هى التى أوقعته فى ذكر الوكر ، مع أنه لو قال فى بحر مثلا لكان أليق . وتراه يقول لصاحبته فاقنى حياءك ، وأكثر من يخاطب بذلك فى الشعر العاذلة لا المعشوقة ، وفى ذلك يقول عنترة :

بَكَرَتْ تُخَوِّفُنِى الحُتُوفَ كأَنَّنى ... أَصبحتُ عن غَرَضِ الحُتُوفِ بمَعْزِل

فأَجبتُهـا إن المنيةَ مَنْهَـلٌ ... لا بد أَنْ أُسْقَى بكأْسِ المَنْهَل

فاقنَىْ حياءك لا أَبالَكِ واعلمى ... أَنى امرؤٌ سأموت إنْ لم أُقْتَلِ

وكذلك فعل حسان فى مواضع أخرى .

## من هى النضيرة ؟

ويكاد المرء يؤكد أن هذه التى سماها النضيرة معشوقة حقيقية لا شخصية خيالية ، وإن أعوزنا ما وراء ذلك من عرفان ذاتها ، واستجلاء نسبها ، لأنه يذكر فى حديثه إليها مناسبات لقائها ، وحسن منظرها بساحة ذلك القصر يوم خروجها ، وانتماءها إلى أهل المجد والفخر ، وما هى فيه من نعمة وعيش رغد .

**مثل آخر من قلة بصره بالغزل**

وهذا مثل آخر من قلة بصر حسان بالغزل ، من قصيدته المشهورة فى الفخر التى مطلعها [١] :

أَلَمْ تَسأَلِ الرَّبْعَ الجديدَ التَّكَلُّمَا بِمَدْفَعِ أَشْداخٍ فَبُرْقَةِ أَظْلَما

إذ يقول فى حديثه عن شعثاء ، وقد رحل أهلها :

فأَنَّى تَلاقِيها وقد حَل أَهلُها بِوادٍ يمانٍ من غِفَارٍ وأَسْلَمَا [٢]

تلاقٍ بعيدٌ واختلافٌ من النَّوى تَلاقِيكَهَا حتى تُوَافِىَ مَوْسِمَا

سأُهْدِى لها فى كل عامٍ قصيدةً وأَقْعُدُ مكْفِيًّا ببيْربَ مُكْرَمَا

فهو يشكو نأى شعثاء وبعد مزارها ، وعسر لقائها حتى توافى الموسم ، إذ حلّ أهلها دياراً نازحة عن يثرب ، من غفار وأسلم . ويذكر قناعته بقعوده مكفيًّا بيثرب مكرماً ، واكتفاءه بقصيدة يهديها إليها فى كل عام ، وهذا قول لا يقوله عاشق يشغفه الحب ، ويبرح به الوجد ، لأن ذلك البعد إنما يذكى نيران الجوى فى قلوب المحبين ، ويلهب عواطف العاشقين ، فيتتبعون آثار أحبابهم ويلتمسون ريحهم . فما أهون حبه ، وما أشد ضعفه واستسلامه وعجزه عن اليسير من السعى . وما أشبه قوله : « وأقعد مكفيًّا بيثرب مكرماً » بأقوال النساء ، ممن همهن أن يجدن الكفاية ، وأن يقعدن فى ظل من يرعاهن مكرمات .

ولحسان قصيدة أخرى مطلعها [٣] :

لِمنْ منزلٌ عافٍ كأَن رُسُومَهُ خَيَاعِيلُ رَيْطٍ سَابِرِىٍّ مُرَسَّمِ

تساءل فيها عن المنزل الدارس ، وما أحدثته به الرياح والأمطار ، ثم انتقل إلى الغزل بليلى فقال :

فإن تكُ ليلى قد نَأَتْكَ ديارُها وضَنَّتْ بحاجاتِ الفؤادِ المُتَيَّمِ

---

(١) الديوان رقم ٤ .

(٢) غفار : من كنانة . أسلم : من خزاعة .

(٣) الديوان رقم ١٠ .

وهَمَّتْ بِصَرْمِ الحَبْلِ بعدَ وِصالِهِ ... وأَصغت لقولِ الكاشِحِ المُتَزَعِّمِ[١]
فما حَبْلُها بالرَّثِّ عندى ولا الذى ... يُغَيِّرُهُ نَأْىٌ ولو لم تَكَلَّمِ[٢]
وما حبُّها لو وكَّلَتْنى بوصْلِهِ ... ولو صَرَّم الخُلَّانُ بالمُتَصَرِّمِ[٣]
لَعَمْرُ أَبيكِ الخيرَ ما ضاع بِرُّكمْ ... لدىّ فتَجْزِينى بِعادًا وتَصْرِمِى
ولا ضِقتُ ذَرْعاً بالهوى إذ ضَمِنْتُهُ ... ولا كُظَّ صدرى بالحديثِ المُكَتَّمِ[٤]
ولا كان مما كان . مما تَقَوَّلوا ... علىَّ ونَشُّوا ، غيرَ ظَنٍّ مُرجَّمِ[٥]

فكان لطيف الغزل ، صادق الصبابة ، جميل الأداء ، حين صرح بأن عهدها وثيق ، ليس بالرث على نأى دارها ، وضنها بحاجات الفؤاد المتيم بها ، وهمها بهجره ، وإصغائها لكاشحه ، وأن حبها ليس بالمتصرم ، وسرها ليس بالضائع الذائع ، وأنه لا يضيق ذرعاً بهواها ، ولا يعجز صدره عن كتمان سرها . ولكننا نراه يكرر ضيق الذرع مع الحديث عما يختلج بنفسه من حرارة العشق ولوعة الصبابة . وإنما يكثر ذكره فى غير هذا الموضع ، عندما يصف الشاعر نفسه باحتمال ما ينوبه من المكاره والأخطار . كما نراه يكرر هذا القسم الخاص « لعمر أبيك الخير » عند مخاطبته المرأة . وانتهى من غزله بالتنصل مما تقوّل عليه أعداؤه ، وجعله من رجوم الظنون ، وهو بذلك يوافق الحذاق من الغزلين فى حسن تنصلهم ، وتبرئهم مما يتهمهم به عذالهم . ويبدو أن غزله هذا كان صادراً عن عاطفة قوية من الحب ، يدل عليها ما عرضه من المعانى التى أشرنا إليها ، فى استمساكه بحبل ليلى ولو هجرته ، وفى حفظه لسرها ، وحسن تنصله مما تقوّل عليه عذاله ، وتبرئه مما اتهموه به ، مما لا يصدر مثله إلا عن شاعر عاشق .

---

(١) الكاشح : مضمر العداوة . المتزعم : مثير الظنون .
(٢) الرث : البالى .
(٣) صرم : قطع .
(٤) ضمنته : اشتملت عليه . كظ : امتلأ وضاق .
(٥) نشوا : أفشوا . ظن مرجم : مظنون غير مؤكد .

### حسان يخصص بعض قصائده بالغزل

كان حسان شاعراً غَزِلا . وإن فاته أحياناً أن يحسن حديث الغزل ، وأن يكون طَبًّا بالتغزل ، بل كان حسان أحد الشعراء الجاهليين القلائل الذين لهم شعر استقل به الغزل ، فلم يكن مقدمة لغرض آخر . كالمرقِّش الأكبر فى قصيدته التى مطلعها :

سرى ليلاً خيالٌ من سُلَيْمى فـأَرَّقَنى وأصحابى هُجُودُ

وطرفة بن العبد فى غزليته التى مطلعها :

أَتعرفُ رسْمَ الدارِ قَفْرًا منازلُه كجَفْنِ اليَمانى زَخرف الوشْىَ ماثِلُه

وهى طويلة ، رواها أبو عمرو الشيبانى عن ابن السكيت .

وعنترة فى قصيدته :

سَقَتْكَ يا عَلَمَ السَّعْدِىِّ غاديةٌ من السحاب وَروَّى رَبْعَكَ المَطرُ

### أثر البيئة فى حسان وغزله

وطبيعى أن البيئة التى عاش فيها حسان من الترف والغنى والعزة ، والتفرغ للهو ، والاستجابة لنوازع الشباب ، كانت خليقة بأن تثير فى نفسه الشغف بانتهاب لذات الحياة ، والتوفر على القصف والشراب والنساء ؛ كما تثير فيه الرغبة فى تصوير ما يزاول من ذلك فى شعره ، توفية لإشباع نفسه وسائر جوارحه من هذه اللذات بترديدها فى الكلام ، وهذه هى البيئة التى حين اجتمعت أسبابها بعد ذلك فى أوائل العصر الأموى ، إذ حبس الخلفاء أهل المدينتين من أبناء المهاجرين والأنصار من الهجرة إلى ما وراء الجزيرة العربية ، وملئوا أيديهم بالأموال والأعطيات ، وأسلموهم إلى الفراغ — كانت داعية إلى ذيوع ذلك الفن الغزلى ، واستقلاله عن فنون الشعر الأخرى ، وظهور جمهرة من الشعراء الذين تخصصوا فى النسيب والتشبيب والغزل ، كعمر بن أبى ربيعة ، والعَرْجى ، والأحوص ، وعروة بن أُذَيْنَة ، وابن مَيَّادَة ، وابن الطَّثَرِيَّة ، وغيرهم .

## مثل من غزله الخالص

ومن ذلك الغزل الخالص قول حسان[١] :

قد تَعَفَّى بعدَنا عَاذِبُ ما إنْ به بادٍ ولا قارِبُ[٢]
غيَّرتْهُ الريحُ تَسْفِي به وهزِيمٌ رَعْدُهُ واصِبُ[٣]
ولقد كانتْ تَكونُ بهِ طَفْلَةٌ ممْكورةٌ كاعِبُ[٤]
وَكَّلَتْ قلبي بذِكْرَتِها فالهوى لى فادحٌ غالبُ
ليس لى منها مُوَاسٍ ، ولا بُدَّ مما يَجْلِبُ الجالِبُ[٥]
وكأنِّى حينَ أَذكُرُها من حُمَيَّا قهوةٍ شاربُ[٦]

يذكر عاذباً وقد غيرته السافيات والمطر الملحّ من بعدهم ، وقد كان مَراد حبه ومَغْنَى حبيبته ، وهى ناهد ريانة طفلة ناعمة ، قد وكلت قلبه بذكرها حتى فدحه الهوى وغلبه الحب ، على تفرده بالبثّ ، وحاجته إلى المعين المواسى فيما أصابه من حبها وفراقها . وهما قدر من الأقدار التى لا مفر من حكمها . وإنه من ذلك حين يذكرها لفى حرقة وتصدع كالشارب من حميا الخمر .

ثم وصل بذلك عهداً له ولها فى هذه الأمكنة . من هضب ذى نفر ولوى الأعراف والضارب ولوى الخربة ، التى ربما كانت من المدينة أو أرباضها ، إذ كان أهله وأهلها كل مساء بها فى لعب وسمر ، يتساءل عنها كالمتحزن الأسيف ، يندب ذلك العهد . ويستبكى صاحبه ونفسه على ما انقضى من وصل لا يدوم لأحد ، ثم يفىء إلى نفسه ، فيحدثها أن الدمع لا يرد فائتاً . ولا يصل منقطعاً ، وذلك إذ يقول :

---

(١) الديوان رقم ١٣٩ .
(٢) تعفى : ضاعت معالمه . عاذب : موضع وواد أو جبل قريب من رهبى فى ديار بنى تميم . البادى : المبعد الذاهب فى البادية . القارب : المقارب للماء والقادم .
(٣) تسفى به : تثير ترابه وتحمله . الهزيم : السحاب ذو المطر والصوت . واصب : دائم .
(٤) الطفلة : الناعمة . الممكورة : الممتلئة . الكاعب : الناهد ثديها .
(٥) المواسى : المسلى والمعزى والمعين . الجالب : يريد به القدر المتصرف .
(٦) الحميا : سورة الشراب وحرارة دبيبه فى الجسم . القهوة : الخمر .

أكعهدى هَضْبُ ذى نَفَرٍ فَلِوى الأعرافِ فالضَّاربُ
فَلِوَى الخُرْبَةِ ، إذْ أهلُنا كُلَّ مُمْسًى سامرٌ لاعبُ[1]
فابكِ ما شئتَ على ما انقضى كلُّ وصلٍ مُنْقَضٍ ذاهبُ
لو يَرُدُّ الدمعُ شيئاً لقد رَدَّ شيئاً دمعُك الساكِبُ

ثم يصل شكواه من صاحبته التى لم تنصفه الحب بشكواه من صاحبه الذى يرى ألا يعاتبه على ما كان من هفواته ، لقلة ما يجنيه من ذلك العتب لصاحب يكشف شاهده عما يحاول إخفاءه من غائبه ، وتدل ظواهره على بواطنه . وقد سلفت الإشارة إلى شكواه من جور الصحاب فى الكلام عن فخره بفعال والده .

وفى ذلك يقول :

لم تَكُنْ سُعْدَى لتُنْصِفَنى قَلَّ ما يُنْصِفُنى الصاحبُ
كأَخٍ لى لا أُعاتبــهُ وبما يَسْتكثِرُ العاتبُ
حَدَّث الشاهدُ من قولهِ بالذى يُخْفِى لنا الغائبُ
وبَدَتْ منه مُزَمَّلَــةٌ حِلمُهُ فى غَيِّها ذاهبُ[2]

وهذه القصيدة فى الجملة ليست من جيد شعر حسان ، فإنه لم يوفق عندما أراد أن يأتى بالحكمة فى قوله « ولابد مما يجلب الجالب » فأتت مضطربة ضعيفة غامضة ، مخالفة لما ينبغى أن تكون عليه الحكمة من الإشراق والوضوح والمبادرة إلى نفس السامع ، لأن غرضها النصيحة ، وهذا الغرض لا يتحقق إذا كان فى الكلام خفاء ، والمعنى الذى أراده بقوله هذا لا يبدو إلا بعد إطالة النظر ، فما الجالب ؟ وما ذاك الذى يجلبه ؟

وقوله : « إذ أهلُنا كُلَّ مُمْسًى سامرٌ لاعبُ » فيه ضعف ، جلبه قوله : « كل

---

(١) هضب ذى نفر ، ولوى الأعراف ، والضارب ، ولوى الخربة أسماء مواضع . ولم أجد شيئاً بالمعاجم عن هضب ذى نفر ولوى الأعراف ولوى الخربة . وفى معجم البلدان ٥ / ٤٢١ « ضارب السلم وهو شجر مجتمع من السلم باليمامة يسمى الضارب » وقد ذكر فى مطلع القصيدة « عاذب » وهو كما تقدم فى ديار بنى تميم باليمامة . السمر : حديث الليل .

(٢) مزملة : مستورة . الغى : الضلال .

ممسى » . وقوله : « كل وصل منقض ذاهب » لا غناء به ولا جديد فيه ، وليس فى قوة قول لبيد :

أَلا كلُّ شىءٍ ما خلا اللهَ باطلُ وكلُّ نَعيمٍ لا محالَة زائلُ

أو قول الأعشى :

ذاكَ عيشٌ شهِدْتُهُ ثم وَلَّى كلُّ عيشٍ مصيرُه للزوالِ

ثم ما الفرق بين منقض وبين ذاهب ؟ وما جدوى هذا التكرار للفظين ليس لأحدهما شرف المبنى أو المعنى ؟

هذا إلى أن ألفاظه فى الغزل هنا مقصرة عما يتطلبه العشق من الرقة وانتخاب عذب الألفاظ ، حتى بالقياس إلى ما سبق من غزله فى قصيدته الميمية .

**مثل آخر من ذلك الغزل**

وهذه قطعة أخرى مما استقل به الغزل من شعره ، قالها بالمدينة وكان قد طلق زوجه عمرة الأوسية ، لأنها فخرت عليه بالأوس وعيرته أخواله[١] ، فمر بها فى جماعة من صواحبها فاستترت ، وأغرت إحداهن بسؤاله عن نسبه فانتسب ، ولما ذكر أخواله بصقت وأعرضت ، فحدد النظر فبصر بعمرة فى النساء تضحك ، فعرفها وعرف أن الأمر من قبلها قد أتى[٢] ، فقال فى ذلك[٣] :

قالت له يوماً تُخاطبه نُفُجُ الحَقيبةِ غادةُ الصُّلْبِ[٤]

أَمَّا الوسامةُ والمروءَةُ أَو رأىُ الرجالِ فقد بدا حسبِى[٥]

فَوددْتُ أَنَّك لو تُخَبِّرُنا من والداك ومَنْصِبُ الشَّعْبِ[٦]

---

(١) الأغانى ٣/١٤ طبع دار الكتب .

(٢) الأغانى ٣/١٧ دار الكتب .

(٣) الديوان رقم ١١٠ .

(٤) نفج الحقيبة : ضخمة الأرداف . غادة الصلب : لينة العود .

(٥) الوسامة : الحسن .

(٦) منصب الشعب : أصله .

فضحكتُ ثم رَفَعتُ مُتَّصِلاً صَوْتى أَوانَ المَنْطِقِ الشَّغْبِ[1]
جَدِّى أَبو ليلى ، ووالـــدُه عمرٌو ، وأَخـــوالى بنو كَعبِ
وأَنا من القوم الذين إذا أَزَم الشتاءُ مُحالِفَ الجَدْبِ[2]
أَعطى ذوو الأَموالِ مُعْسِرهُمْ والضاربين بمَوْطنِ الرُّعْبِ

**محاولته الشعر القصصى**

وقد أراد حسان بهذا المنهج أن يحاول الشعر القصصى ، فتوفق بعض الشىء ، ولكنه أتى بما لا يستريح له الذوق فى وصفه المرأة بأنها نفج الحقيبة ، وأنها غادة الصلب ، وإنما الغزل من الشعراء يتخير العذب من الكلام ، والرشيق السمح من التعبير ، ويناى بنفسه عن الهجنة ، بالوقوع فيما لا يجمل توجيهه إلى المحبوب من غليظ القول وخشن الكلام . وفى ذلك يقول على بن عبد العزيز الجرجانى : « وترى رقة الشعر أكثر ما تأتيك من قبل العاشق المتيم ، والغزل المتهالك ، فإن اتفقت لك الدماثة والصبابة ، وانضاف الطبع إلى الغزل . فقد جمعت لك الرقة من أطرافها ».[3]
وقد ورد البيت فى نسخ الديوان جميعها بهذه الرواية ، ولكن أبا الفرج رواه ، وذكر « ريا الروادف » مكان « نفج الحقيبة »[4] . وأيًّا كان سنده فى روايته هذه فإنها متمشية مع ما استنكرناه من مجىء العبارة الأولى فى وصف المرأة . ومهما كان المراد من كلمة « نفج الحقيبة » وأنه عظم الأرداف ، ومهما كان المراد من « غادة الصلب » — وهو تركيب بالغ إلى حد النبو — من أنه لين قوامها ، فغير هذا الكلام فى التعبير عن هذه المعانى كان أحق منه بالذكر وأليق ، وخصوصاً من قبل حسان ، وهو شاعر متنعم ، يستوطن أعظم أمصار العرب مدنية وحضارة . وأين هذا من قول امرئ القيس :

---

(١) متصلا : منتسباً . الشغب : الجدل .
(٢) أزم الشتاء : أحدث الضيق . الجدب : خلو الأرض من الزرع .
(٣) الوساطة ص ٢١ .
(٤) الأغانى ٣/١٧ .

لَطِيفةُ طَيِّ الكَشْحِ غَيرُ مُفاضة إذا انْفَتَلَتْ مُرْتَجَّةً غيرَ مِتْفَـالِ[١]
إذا ما استَحَمَّتْ كان فَيْضُ حَمِيمِها على مَتْنَتَيْها كالجُمَانِ لدَى الجَالِي[٢]

أو من قول النابغة :

مَخْطوطَةُ المَتْنَيْنِ غيرُ مُفاضَةٍ رَيَّا الرَّوَادِفِ بَضَّةُ المُتَجَرَّدِ

ومن خطئه فى المعانى أيضاً ذكره المروءة فى وصف المرأة ، إذ المعروف أن المرأة توصف بالجبن والبخل وغيرهما مما لا يلائم المروءة ، فالمروءة كمال الرجولية والإنسانية[٣] . وإضافة المنصب إلى الشعب إضافة نابية غريبة فى موضعها ؛ ولكنها قافية لا أقل ولا أكثر لم يجر بها الاستعمال . وإنما يقال منصب الشرف والرياسة والملك ، ومنصب فلان ، أما الشعب فالأصل الأول الذى ليس وراءه أصل . وأما « أوان المنطق الشغب » فأقبح ما فيها كلمة « أوان » فى هذا الموضع ، ووصف المنطق بالشغب ، إذ المقام ليس مقام مشاغبة ، فهو حيال دعابة سائغة ومعابثة لطيفة من امرأة ، شأنها أن تصير به إلى العذوبة والسلاسة والرقة فى خطابها ، لا أن يتفخم ويشغب ويغضب فى الرد عليها ، فهو كما ترى لم يكن على حذق بأساليب غزل النساء ، فأخذ الأمر مأخذ الجد ، واستنكر ما كان منها ، وغضب على عادته .

وهذه القصة تذكرنا بقصة مهيار الديلمى مع صاحبته ، الذى يختلف عن حسان فيما لقيها به من روح سمحة ، وطبع رقيق ، تتبينهما فى شعر مهيار ، إذ يقول :

أُعْجِبتْ بِى بينَ نادى قومِها أُمُّ سعدٍ فمضتْ تَسْأَل بِى
سَرَّها ما علمتْ من خُلُقِى فأَرادتْ عِلْمَها ما حَسَبِى
لا تَخَالى نسباً يَخْفِضُنِى أنا منْ يُرضيكِ عندَ النسبِ
قومى اسْتَولَوْا على الدهر فَتًى ومَشَوْا فوقَ رءُوسِ الحِقَبِ

---

(١) لطيفة الكشح : دقيقة الخصر . المفاضة : المسترخية البطن . انفتلت : مشت مسرعة . متفال : كريهة الرائحة .

(٢) متنتيها : جانبى ظهرها . الجمان : الفضة البيضاء . الجالى : الذى يجلو الدراهم .

(٣) لسان العرب ، القاموس المحيط .

عمَّدُوا بالشمس هاماتِهِمْ وبنَوْا أبياتَهم بالشُّهُبِ
قد قَبِسْتُ المجدَ عن خير أبٍ وأخذتُ الدِّينَ عن خيرِ نَبِى
وجمعْتُ المجدَ من أطرافِهِ سُؤْدُدَ الفُرْسِ ودِينَ العَرَبِ

**حسان وبعض الشعراء**

ونعود فنقول إن حسان فصل بين المتعاطفين « الذين والضاربين » بالشرط والجواب ، مما يوهم تمام الكلام قبل العطف وانبتات الصلة بين جزأى القول . وقد أراد فى هذين البيتين أن يقلد زهيراً فى ذلك المعنى الذى فخر بقومه فيه . فأخطأه التوفيق فى الألفاظ . وقصر فى المعانى ، فذوو الأموال من قوم حسان هم الذين يُعْطُون . أما قوم زهير فالمكثرون منهم والمقلون يجودون ، حين يقول :

على مُكْثِريهِمْ رِزْقُ من يَعْتَرِيهِمْ وعندَ المُقِلِّين السماحةُ والبَذْلُ

ولد أحسن بعد ذلك فى وصف قومه بالشجاعة والإقدام بقوله « والضاربين بموطن الرعب » أى الذين يصيبون من الأعداء مقاتلهم ، فإن موضع الرعب هو القلب ، ولو أنه جعل « مواطن » مكان « بموطن » لكان أبلغ فى شموله ، ولذهب بذهاب تلك الباء ما يمكن أن يقلق العبارة . وقوله هذا بمعنى قول الآخر :

الخالطون نَجِيَّهُم بِضِغَارِهِم والضاربون مواضعَ الأَضغانِ

وقد أحسن البحترى فى هذا المعنى كل الإحسان ، فى وصف قتاله للذئب بقوله :

فَأَتْبَعْتُــه أُخرى فأَضْلَلْتُ نَصْلَها بحيثُ يكون الرعبُ واللبُّ والحقدُ

**نقد وتصحيح**

ولحسان أبيات ثلاثة يذكر فيها صاحبته هى[1] :

لِمن الدارُ والرسومُ العَوَافِى بين سَلْعٍ وأَبْرقِ العَزَّافِ[2]

---

(١) الديوان رقم ١٧٨ .

(٢) الرسوم العوافى : بقايا الآثار . سلع : موضع قرب المدينة . أبرق العزاف : ماء لبنى أسد فى الطريق من البصرة إلى المدينة .

دارُ خَوْدٍ تَشْفِي الضَّجيع بعذب الطَّ  عمِ مُزٍّ وبارِدٍ كالسُّلافِ[١]
ما تَراها على التعَطُّل والبِذْ  لةِ إلا كَدُرةِ الأَصْدافِ[٢]

فأحسن المساءلة عن الدار ورسومها العوافى ، وعرض لصاحبته صورتين من صور الجمال ، فهى شابة جميلة ناعمة ، تشفى الضجيع بعذب ريقها الذى يشبه السلاف ، وهى لدى التعطل وعند التبذل لا تُرى إلا كأحسن ما تكون جمالا وصفاء وتلألؤاً ، حتى لتشبه الدرة المجتلاة من الأصداف . ونكاد لا نجد فى هذه الأبيات إلا سلاسة ودماثة ألفاظ وحلاوة كلام ، وتوفقاً إلى إلباس المعنى الجميل اللفظ الرشيق . ومن عجب أن يقدمها الدكتور هرشفيلد بقوله[٣] :

« إن حسان يصف بها دار كرم » . فكأنه فهم من دارخود ، ومن ذكر شفاء الضجيع ، وعذوبة الطعم والسلاف ، أن ذلك مما يعد للأضياف فى تلك الدار ؛ وعذره فى هذا أن المستشرقين أنفسهم يعترفون — مع استيعاب بحوثهم — بنقص أذواقهم اللغوية عن أصحاب اللغة العربية .

## مثل ثالث من الغزل الخالص

ومما استقل به الغزل من شعره قصيدته التى مطلعها[٤] :

تَطاول بالخَمَّانِ ليلِي ، فلم تَكَدْ  تَهُمُّ هَوَادِى نجمِه أن تَصَوَّبا[٥]

فهذا هو حسان يسير بنا إلى بلاد الشام ، حيث الظلال والكروم والمياه ، والوديان الغريضة ، والجبال المعممة بالثلوج ، فيحدثنا حديثاً آخر عن هواه وتصابيه . فإنه بعد أن وصف طول الليل من خوف التفرق ، وحال الفراق وروعته ، ذكر ما أصابه غداة البين ، وعجب من نفسه أن لم ينس التصابى بعد المشيب ، ومن شعثاء أن تجمع بين الشوق والصد ، وعاد متسائلا كيف يتصدى عاقل

---

(١) الخود : الشابة الناعمة . السلاف : الخمر .
(٢) التعطل : عدم التزين . البذلة : عدم الصيانة وخدمة المرء نفسه وثياب العمل .
(٣) انظر شرحه لهذه القطعة بالديوان ص ١٠٢ .
(٤) الديوان رقم ٢٩ .
(٥) الخمان : موضع بالشام قريب من دمشق . هوادى النجوم : أوائلها . تصوب : تغرب .

للصبا على حين لا يعذره الناس فى ذلك . وذكر أنه يطيل اجتنابها عن غير بغضة ، وأن شعثاء لا تحاول أن ترضيه ، فقال :

وكدتُ غداةَ البَينِ يغلِبُنى الهوى ... أعالجُ نفسى أن أقومَ فأَرْكَبا
وكيف ولا يَنْسى التصابىَ بعدما ... تجاوزَ رأسَ الأربعينَ وجَرَّبَا
وقد بان ما يَأْتى من الأمر ، واكتست ... مفارِقُه لوناً من الشيب مُغْرَبَا[1]
أَتَجْمَع شوقاً إن تراختْ بها النَّوَى ... وصدًّا إذا ما أَسْقَبتْ وتَجَنُّبَا[2]
إذا انْبَتَّ أسبابُ الهوى وتَصَدعتْ ... عَصا البَيْنِ لم تسْطِعْ لِشَعْثَاءمطْلَبَا[3]
وكيف تَصَدِّى المرءِ ذى اللُّبِّ للصِّبا ... وليس بمعذور إذا ما تَطَرَّبَا[4]
أُطيلُ اجتناباً عنهمُ غيرَ بغْضَةٍ ... ولكنَّ بُقْيَا رَهْبةٍ وتَصَحُّبَا[5]
أَلَا لا أرى جارًا يُعَلِّلُ نفسَهُ ... مُطاعاً ، ولا جارًا لشعثاءَ مُعْتَبَا[6]

وما كان لحسان أن يعجب من جمع شعثاء بين الشوق عند الفراق وبين الصد عند اللقاء ، فذلك شأن الغانيات والنساء العاشقات ، وهو أشبه بحيائها وخفرها . ثم هو يعرض فى كلامه حال المحبين من القلق وبلبلة الخاطر ولوم النفس ، والتوزع بين التفكير فى الهجر والرضا بالواقع .

## الوصف

### الطبيعة والشاعر

وهذه نماذج من وصف حسان للطبيعة التى خالطها ، والمشاهد التى رآها ، والأشياء التى تأثر بها ، والطبيعة غانية فتانة ، تعان فى صمت عن نفسها ،

---

(١) المغرب : بفتح الراء ما كل شىء منه أبيض .
(٢) أسقبت : قربت .
(٣) انبت : انقطع .
(٤) التصدى : التعرض . الصبا : الميل مع دواعى الشباب .
(٥) بقيا رهبة وتصحبا : بقية رهبة واستحياء .
(٦) المعتب : الذى يجد من يرضيه . وأعتبه : أرضاه .

وإن كان حديث الناس عنها أكبر همها ، لذلك تستهوى النفوس الشاعرة بمباهجها ، وتحملها على الكلام بلسانها ، والتغنى بمحاسنها ، والإشادة بذكرها . والنفوس المرهفة كالعدسات الحساسة ، تنطبع فيها المشاهد كلها ، ويهتز فيها حس الجمال لمختلف ألوانها ، سواء فى ذلك ممتعها وموجعها ، وضاحكها وعابسها ، وصاخبها وصامتها ، وكئيبها ورائعها . ولا شك فى أنه قد عرض لحسان فى رحلاته الكثيرة — ولا سيما فى بلاد الشام — صور منها ، حركت فى قلبه أوتار الشعر ، وغمرته بروعة الجمال ، فوصفها فى المناسبات التى توافقها من غزل وفخر ، وذكر لحياة اللهو والنعيم والشراب التى ذاقها وأحبها ، فى المدينة وفى قصور غسان .

## وصف الخمر

وكان حسان مبدعاً فى وصف الخمر وبيان أثرها فى الجسوم وفى النفوس ، ذلك لأنه على ما يبدو كان من صفوة عشاقها ، ولأنه شهد من مجالسها الحافلة بأرض الشام ما خلّدت فى نفسه صورته ، وما ظلت تتردد بين جنبيه أصداؤه .

## غزل وخمر وفخر

استمع إليه يذكر شعثاء ويذكر الخمر ، ثم لاينسى الفخر ، كأنها فى قلبه صنوان ، وفى حلبة شعره أفراس رهان [١] :

انظر خليلِي ببَطن جِلِّق ، هل ... تُؤْنِسُ دونَ البَلْقاءِ من أَحدِ[٢]

جِمالَ شَعْثاءَ ، قد هَبَطْنَ منَ الـ ... مَحْبِسِ ، بين الكُثْبانِ فالسَّنَدِ[٣]

يَحمِلْنَ حُوًّا ، حُورَ المدامعِ فى الرَّ ... يْطِ ، وبِيضَ الوجوه كالبَرَدِ[٤]

---

(١) الديوان رقم ١٣٨ .

(٢) جلق : من أرض الشام قديماً موضع دمشق — والبلقاء من أرض الشام أيضاً .

(٣) الكثبان : جمع كثيب وهو التل من الرمل — السند : سفح الجبل .

(٤) حو : جمع حواء والحوة حمرة تميل إلى السواد . الحور : شدة سواد العين فى شدة بياضها . الريط : جمع ريطة ثياب رقيقة .

من دون بُصْرَى ، وخلفَها جبلُ الثـ ... ـلج ، عليه السحابُ كالقِدَدِ[١]
إنى وربِّ المُخَيَّساتِ ، ومـا ... يَقْطَعن من كل سَرْبَخٍ جَدَدِ[٢]
والبُدْنِ قد قُرِّبت لِمَنْحَرها ... حِلْفَةَ بَرِّ اليمينِ مجتهد[٣]
ما حُلتُ عن خيرِ ما عهدتِ ، ولا ... أَحببتُ حُبِّى إياكِ من أَحدِ[٤]
تقول شعثاءُ : لو تُفِيقُ من الـ ... ـكأْسِ ، لأُلفِيتَ مُثْرِىَ العَدَدِ
أَشْهَى حديث النَّدْمانِ فى فَلَقِ ... الصبحِ ، وصوتَ المُساوِرِ الغَرِدِ[٥]
يأْبَى لِىَ السيفُ واللسانُ ، وقو ... مٌ لم يُضامُوا كِلبْدَةِ الأَسدِ
لا أَخدِشُ الخَدْنَ بالنديم ، ولا ... يَخْشَى جليسى إذا غضبتُ يَدِى[٦]
ولا نَديمى العِضُّ البخيلُ ، ولا ... يَخاف جارى ما عشتُ من وَبَدِ[٧]

فهو فى هذه القصيدة المرحة ، الفتيّة المنزع ، الخفيفة الظل ، اللطيفة الروح ، يذكر بطن جلق والبلقاء وبصرى وجبل الثلج يعلوه السحاب من أرض الشام ، ويتحدث عن جمال شعثاء ، وعن جمال من تحمل من النساء فى الرقائق والرياط ، من كل حواء حوراء المدامع ، بيضاء الوجه مثل البرد ، وهو فى هذا التشبيه متأثر بصور الطبيعة فى البلاد الغسانية . ويقسم قسم البر المجتهد على وفائه بعهدها ، وأنه ما أحب من أحد حبها ، ويصل ذلك بلومها إياه فى الشراب ، وإفنائه ماله فيه ، مقرراً حبه مجلس الخمر ، واشتهاءه حديث النديم فى فلق الصبح ، وصوت المغنين على الشراب ، فى لفظ عذب ، وتعبير جميل ، وتصوير رائع ، يحرك فى نفوس الشيوخ الحنين إلى عهد الشباب ، ويستحيي ذكريات الصبا واللهو .

---

(١) بصرى بلد بالشام وجبل الثلج به أيضاً . القدد : جمع قدة وهى الجماعة من الناس يختلفون والمراد كالجماعات المتفرقة .

(٢) المخيسات : الإبل المذللة . السربخ : الأرض الواسعة . الجدد : ما استرق من الرمل والأرض الغليظة المستوية .

(٣) البدن : الإبل والمراد هنا التى تذبح قرباناً .

(٤) حلت : تحولت .

(٥) الندمان : الجليس على الشراب . الغرد : المغنى .

(٦) أخدش النديم : أعيبه وأوذيه .

(٧) العض : البخيل والسيئ الخلق . الوبد : سوء الحال والفقر .

**حسان وسحيم يشيدان بالخمر**

قال بعض أهل المدينة : ما ذكرت بيت حسان إلا اشتهيت أن أعود فى الفتوة ، وهو قوله :

أَهوَى حديثَ الندمان فى فَلَقِ الصبح وصوت المسامر الغَرِدِ[1]

فيا ويح هذا الشيخ ! وكيف به لو أنه سمع قول سُحَيم بن وَثيل الرِّياحى الجاهلى[2] وهو ينطلق مجلياً فى هذا الميدان :

تقول حَدْراءُ : ليس فيك سوى الخمـ ـرِ مَعابٌ يَعِيبُه أَحَدُ
فقلتُ أَخطأْتِ ، بل مُعاقَرتى الخمـ ـرَ ، وبَذْلى فيها الذى أَجِدُ
هو الثناءُ الذى سمعتِ به لا سَبَدٌ مُخْلِدى ولا لَبَدُ[3]
ويحكِ ! لولا الخمورُ لم أَحْفِل العَيـ ـشَ ، ولا أَن يَضُمَّنى لَحَدُ
هى الحَيا والحياةُ واللهوُ ، لا أَنتِ ، ولا ثروةٌ ، ولا وَلَدُ

وهل تبلغ أبيات حسان على جمالها من النفس ما تبلغه أبيات سحيم ! وهل يبلغ من توارد الخواطر أن يتفق الشاعران فى الغرض والوزن والقافية وجانب من اللفظ والمعنى !

ولم يستطع حسان على ذكر حبيبته ، وفى لذة نشوته ، إلا أن ينوه بسيفه ولسانه وقومه الأعزة ، وأنها جميعاً تأبى عليه ترك الخمر ! كأن الخمر من آيات عزته ، وأمارات سيادته ، وإلا أن يفخر بخلقه الكريم ، وحسن معاشرته لجلسائه ونداماه ، وتخيره لهم ، وإفضاله عليهم .

يروون أن ابن عمر سمع قول حسان :

يأْبى لىَ السيفُ واللسان وقو مٌ لم يُضاموا كلِبدة الأَسدِ

فقال : أفلا قال يأبى لى الله ! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم[4]

---

(١) الشعر والشعراء ص ١٠٤ . وفيه أهوى بدل أشهى .
(٢) البيان والتبيين ٣/٢٠٥ .
(٣) لا سبد ولا لبد : أى لا قليل ولا كثير .
(٤) ذيل الأمالى ص ١١٢ .

ويظهر أن ابن عمر لم يعرف الأبيات السابقة على هذا البيت ، ليدرك أن المقام لا يليق معه أن يقول « يأبى لى الله » ومع هذا فإنه كما قدمنا[١] لم يزن قول حسان بميزان الشعراء ، وإنما حاسبه حساب الفقهاء .

## من روائع خمرياته

### الخمر وساقيها وأثرها

وهذه إحدى روائع خمرياته ، يصف فيها الخمر وساقيها وفعلها بشاربها ، ويصف الناقة ، مستطرداً إلى ذلك من غزله بشعثاء أيضاً ، وذكره لرسوم ديارها الدوارس — وهذا الاستطراد مذهب الجاهليين — منتهياً منه إلى فخره بقومه بنى النجار ، قال[٢] :

ما هاج حسانَ رسومُ المَقامْ ... ومَظْعَنُ الحَيِّ ومَبْنى الخِيامْ[٣]

والنُّؤْيُ قد هَدَّمَ أَعْضادَهُ ... تَقَادُمُ العهدِ بِوادٍ تِهَـامْ[٤]

قد أَدركَ الواشون ما حاولوا ... فالحَبْلُ من شَعثاءَ رَثٌّ الرِّمَامْ[٥]

جِنِّيَّةٌ أَرّقنى طَيْفُها ... تَذهبُ صبحاً وتُرَى فى المَنَامْ

هل هى إلا ظبيةٌ مُطْفِلٌ ... مَأْلَفُها السِّدْرُ بنَعْفَىْ بَرَامْ[٦]

تُزجِى غزالاً فاتراً طَرْفُهُ ... مُقاربَ الخطوِ ضعيفَ البُغَامْ[٧]

كأَن فاها ثَغَبٌ باردٌ ... فى رَصَفٍ تحتَ ظلالِ الغَمامْ[٨]

---

(١) انظر ص ٢١ من هذا الكتاب .

(٢) الديوان رقم ٢٤ .

(٣) مظعن الحى : مكان رحيلهم .

(٤) النؤى : الحفير حول الخيام يجرى إليه ماء المطر . الأعضاد : ما يقام حوله من بناء . تهام : بالفتح نسبة إلى تهامة فهى صفة ، وبكسر التاء واد باليمامة فهى مضاف إليه

(٥) الرمام : جمع رمة وهى القطعة من الحبل .

(٦) مطفل : ذات أولاد . السدر : شجر النبق . النعف : الجانب . برام : واد .

(٧) البغام : صوت الظبى .

(٨) الثغب : الغدير بين الظلال . الرصف : الحجارة المتراصفة .

شُجَّتْ بصهباءَ لها سَوْرَةٌ من بيت رَأْسٍ عُتِّقَتْ فى الخِتامْ[١]
عَتَّقها الحانوتُ دهرًا ، فقد مَرَّ عليها فَرْطُ عامٍ فَعامْ[٢]
نشربها صِرْفاً وممزوجةً ثم نُغَنِّى فى بيوت الرُّخامْ[٣]
تَدِبُّ فى الجسم دَبيباً كما دَبَّ دَباً وَسْطَ رَقاقٍ هَيامْ[٤]
كأساً إذا ما الشيخُ وَالى بها خَمساً تَرَدَّى بِرداءِ الغلام
من خمر بَيْسانَ تَخيَّرْتُها دِرْياقَةً تُورِثُ فَتْرَ العِظامْ[٥]

وبعد هذا الغزل ، وبعد أن وصف الخمر وأثرها ، وصف الساقى فقال :

يَسعَى بها أَحمرُ ذو بُرْنُسٍ مُخْتَلَقُ الذِّفْرَى شَديدُ الحِزامْ[٦]
أَرْوَعُ للدعوة مستعجِلٌ لم يثْنِه الشأنُ خفيفُ القيامْ[٧]

فتراه قد أحسن الغزل حين وصف شعثاء فى بعد شخصها وطروق طيفها ، وكأنها بهذا من عالم الجن تختفى إذا شاءت ، وتظهر إذا شاءت ، وحين شبهها فى حنوها وعطفها بالظبية المطفل ، تزجى غزالا صغيراً محتاجاً إلى من يرأمه ، مقارب الخطو ضعيف البغام .

## وصف الريق

كما قد أحسن الغزل حين شبه ريقها بماء غدير لا تراه الشمس ، وقد نقاه الرصّف ، وبرّده الظل الظليل ، ومزج بخير خمر ، عتقها الخمار دهراً حتى

---

(١) شجت : مزجت . الصهباء : الخمر . سورة الخمر : حدتها التى تؤثر فى شاربها . بيت رأس : اسم لقريتين فى كل واحدة منهما كروم كثيرة تنسب إليها الخمر ، إحداهما بالقدس والأخرى فى حلب .

(٢) عتقها الحانوت : حفظها . الحانوت : محل الخمار والخمار نفسه .

(٣) صرفا : غير ممزوجة بشىء .

(٤) تسرى فى الجسم سريان الدبا فى الأرض المستوية الناعمة التراب — والهيام من الرمل مالا يتمالك فهو ينهار أبداً .

(٥) بيسان : مدينة بالأردن بالغور الشامى مشهورة بالخمر . درياقة : الدرياق والدرياقة : الترياق من الخمر .

(٦) أحمر : يريد أنه أعجمى . البرنس : قلنسوة طويلة ، وكل ثوب رأسه منه . الذفرى : العظم البارز خلف الأذن ، والأوفق أن تكون الرواية مخلق الذفرى ، من خلقه أى دهنه بالطيب .

(٧) الأروع : الذكى النشيط .

صفت وشف جوهرها ، ولاشك فى أن ذلك المزيج يصير إلى لون من خمر لذة للشاربين ، هدأت حدتها . وخفت لذعها . وساغ مذاقها ، فإن أهل الذكر من شرابها اليوم يفعلون ذلك — على تقدم الزمن واتساع التمدن — إذا أرادوا أن يفتنّوا فى الوصول بالخمر إلى خير حالاتها . فحسان إذاً قد فاق بهذا كثيراً من الشعراء السابقين الذين شبهوا الريق بالخمر ، كما وافق بتلك الأبيات الثلاثة الأعشى فى قوله[1] :

تُعاطِى الضجيعَ إذا أَقبلتْ ... بُعَيْدَ الرقادِ وعند الوَسَنْ[2]

صريفِيَّةً طيّباً طعمُها ... لها زَبَدٌ بينَ كوبٍ وَدَنّْ[3]

يَصُبُّ لها الساقيان المِـزا ... جَ منتصَفَ الليلِ من ماء شَنّْ[4]

وحسبك من دقة تصويره لأثر الخمر والإحساس بدبيبها فى الجسم ، أنه يتمثله بسريان النمال فى الدقيق الناعم من الرمال ، وكأنها بما تحدثه فى الشاربين من نشوة ، وبما تمدهم به من سورة ، قادرة على أن ترد الشيخ الفانى غلاماً فتياً . ثم وصف الساق الأعجمى ، ذا البرنس المشدود الحزام على نحو ما نرى اليوم ، ونشاطه وخفته وسرعة استجابته لداعيه ، وقد طيب ما خلف أذنه على نحو ما تفعل المترفات من النساء اليوم . وإنك لتدرك أثر الشام واضحاً فى حسان من جمال تشبيهاته ، وإبداعه فى وصف الخمر وأثرها وساقيها ، وذكره لبيت رأس وبيسان وقصور الرخام ، والغلام الأحمر ذى البرنس المشدود الحزام .

ثم وصف الناقة بالضخامة والقوة والنشاط والتدفق فى سيرها ، حتى لتظنها مجنونة فى إسراعها ، وفخر بجود بنى النجار فى السنة المجدبة الشهباء ، وبنصرهم للجار ، وحمايتهم لوليهم ، وغلبهم يوم الخصام ، فمنهم ذوو الجود فى الجدب ، وذوو البأس فى الحرب ، وذلك إذ يقول :

---

(١) ديوانه ص ١٧ .

(٢) الوسن : النوم .

(٣) صريفية : نسبة إلى بلدة بواسط تنسب إليها الخمر الصريفية ، أو قيل لها صريفية لأنها أخذت من الدن ساعتئذ كالبن الصريف . الدن : إناء ضخم من الفخار تحفظ فيه الخمر .

(٤) المزاج : ما يمزج به الشىء . الشن : القربة البالية التى رق جلدها ونعم من كثرة الاستعمال ، وذلك أطيب لمائها ، لأن رائحة الجلد تكون قد ذهبت والماء يكون فيها أبرد .

دَعْ ذكرها وانْمِ إلى جَسْرَةٍ جُلْذِيَّةٍ ذاتِ مِراحٍ عَقَامْ[١]
دِفِقَّةُ المِشْيةِ زَيَّافةٌ تَهْوِى خُنُوفاً فى فُضول الزِّمامْ[٢]
تَحسَبُها مجنونةً تَغْتَلِى إذا لَفَّعَ الآلُ رُءوسَ الإكَامْ[٣]
قومى بنو النجارِ إذْ أقبلتْ شَهباءُ تَرمِى أَهلَها بالقَتَامْ[٤]
لا نَخْذُلُ الجار ، ولا نُسْلِمُ الـ حَوْلى ، ولا نُخْصَمُ يومَ الخِصامْ[٥]
منا الذى يُحْمَدُ معروفُهُ ويَفْرُجُ اللَّزْبَةَ يومَ الزِّحامْ[٦]

وننتهى من عرض هذه القصيدة إلى القول بحسن انتقاء حسان لألفاظها ، مما يمكن أن يدركه القارئ دون أن نشير إلى مواضعه ، وبحسن ملاءمته بينها ، مع جمال أسلوبها ، وروعة ما فيها من معنى ومن تشبيه أسلفنا الكلام عنهما .

## وصف النديم

أحب حسان الخمر ، ورأى فيها أنها تخلق شاربها خلقاً جديداً ، وتصيّر الخامل البخيل إنساناً نابهاً كريماً ، وفى ذلك يقول[٧] :

ومُسْتَرَقِ النُّخَامةِ مُسْتَكينٍ لِوقْعِ الكاسِ مُخْتَلَسِ البيانِ[٨]
حلفتُ له بما حَجَّتْ قُرَيشٌ وكلِّ مُشْعْشَعٍ ما لخمرِ آنِ[٩]

---

(١) انم : ارتفع . جسرة : ناقة ضخمة . جلذية : غليظة شديدة . مراح : نشاط . عقام : بازل شديدة .

(٢) دفقة المشية : متدفقة سريعة . زيافة : تختال فى سيرها . تهوى خنوفاً : تميل برأسها نشاطا فضول الزمام : ما ارتخى منه .

(٣) تغتلى : تسرع . الآل : السحاب .

(٤) السنة الشهباء : التى لا مطر فيها ولا زرع فتظهر الأرض بيضاء . القتام : الغبار .

(٥) نخصم : نغلب .

(٦) اللزبة : الشدة . يوم الزحام : يوم الحرب .

(٧) الديوان رقم ٤٢ .

(٨) مسترق النخامة : يريد أنها لا تظهر لخفاف حلقه ، مستكين : خاضع . مختلس البيان : عاجز عن الكلام .

(٩) مشعشع : ممزوج . آن : خفت حرارته .

لَتَصطَبِحَنْ وإن أعرضْتَ عنها ولو أنى بحَيْبَتِهِ سقانى[١]
فطافتْ طَوْفتين فقال زِدنى ودَبَّتْ فى الأَخادِعِ والبَنَانِ[٢]
فلم أعرِفْ أخى حتى اصطَبَحْنا ثلاثاً . فانْبَرَى خَذِمَ العِنانِ[٣]
فَلانَ الصوتُ فانبسطتْ يداه وكان كأنه فى الغُلِّ عانِ[٤]
وراح ثيابه الأُولى سواها بلا بَيْعٍ أَمَيمُ ولا مُهانِ[٥]

فقد صور صاحبه وقد أخذ فى الشراب جاف الحلق مستسلماً عاجزاً عن الإفصاح . فحلف عليه بالبيت المعظم والخمر المشعشعة ، ليشربنها صبحاً ، وليزيدن منها بعد أن أعرض عنها امتلاء ، ويحدث من وفاء صاحبه أنه لو كان فى مثل حاله لسقاه . فلما شرب اثنتين قال له زدنى . وقد دبت الخمر فى أخادعه فمال عنقه ، وفى بنانه فاسترخت أصابعه . فلم يعرف حقيقة أخيه وخفى أمره حتى شرب الثالثة ، فأكثر من الكلام وخلع العذار ، ولان صوته ، وانبسطت يداه بعد أن كان كالأسير فى الغل . وحتى وهب للناس ثيابه ، وهو إذ يصف ما أحدثه الشرب الأول فى صاحبه من خدر . وما جددت له معاودة الشرب من إفاقة وصحو ينحو منحى الأعشى فى قوله :

وكأْسٍ شربتُ على لذَّة وأُخرى تداويتُ منها بِها

## دعوة إلى الشراب

وله فى الخمر فلسفة يُسِرّ بها إلى رفيق شرابه ، المغلوب على أمره من سكره ، فالموت والحياة الفاترة الخالية من الطيبات والمتع عنده سيان ، وما الخمر إلا طيبات الحياة الدنيا ، فلينعم بها ، وليشرب منها ما واتته الفرصة ووسعه الشراب ، ولينتهب اللذات قبل فوات الأوان ، فكل عيش صالح فان . وفى ذلك يقول[٦] :

---

(١) اصطبح : شرب الخمر صبحا . الحيبة : الحبل .
(٢) الأخادع : جمع أخدع عرق فى الحجمتين .
(٣) خذم : مقطوع .
(٤) الغل : القيد . عان : أسير .
(٥) يريد أنه وهب ثيابه ولم يبعها أو يهبها .
(٦) الديوان رقم ٤٣ .

ومُمْسكٍ بصُداعِ الرأسِ من سُكُرٍ  ناديتُهُ وهو مغلوبٌ ففَدَّانِي[١]
لما صحا وتَراخَى العيشُ قلتُ له  إن الحياةَ وإن الموتَ سِيَّانِ[٢]
فاشرب من الخمر ما آتاكَ مَشْرَبُهُ  واعلم بأَنْ كلُّ عيشٍ صالحٍ فانِ

وبيته الثانى مشبه فى معناه بيت سحيم فى قوله السابق ، وإن كان دونه حسناً :

ويحك ! لولا الخمورُ لم أحْفِلِ العيـ  ـشَ ، ولا أن يضمنى لَحَدُ .

## الخمر والفضائل

وحسان فى مطلع قصيدة الفتح الذى رجحنا أنه أنشأه فى جاهليته [٣] يجعل الأشربات كلها فداء لطيّب الراح ، ويعتذر لها عما يلصقه الناس بها ، ويذكر من فضلها أنها تجعلهم ملوكاً حين يشربونها ، وأسدا ما ينهنهها اللقاء ، فلعل هذا كان من أسباب حب حسان لها وتعلقه بها ، فقد كان من أغلى أمانيه التى يتعلق بها ويكثر الحديث عنها ، أن يتحقق له من العزة ما يصله بمجد آبائه العريق المتطاول ، وأن يتهيأ له من الإقدام ما يباهى به فى غمرات القتال ، فيقول[٤] :

إذا ما الأَشْرِباتُ ذُكِرنَ يوماً  فهنَّ لِطيِّبِ الرَّاحِ الفِداءُ
نُوَلِّيها المَلامةَ إن أُلِمْنَا  إذا ما كان مَغْثٌ أَو لِحاءُ[٥]
ونشربُها فتتركُنـــا ملوكاً  وأُسْدًا ما يُنَهْنِهُنا اللقـــاءُ[٦]

قال الألوسى[٧] : « وقد عابه على قوله : " ونشربها فتتركنا ملوكاً . . . " بعض الأدباء فزعم أنه بهذا قد قصر فى الفخر ، فكأنهم ليس فى ذاتهم سيادة

---

(١) فدانى : قال : جعلت فداك .
(٢) تراخى العيش : فتر وذهبت لذته .
(٣) « الهجاء والهجاءون » ص ٢٢١ يعتبر قصيدة الفتح كلها إسلامية . وقد ناقشنا هذه المسألة من قبل ، فانظر ص ١٩٤ من هذا الكتاب .
(٤) الديوان رقم ١ .
(٥) نوليها الملامة : نلحق بها اللوم . ألمنا : فعلنا ما يوجب اللوم . المغث : القتال . اللحاء : السباب .
(٦) ينهنهنا : يكفنا ويزجرنا .
(٧) بلوغ الأرب ٣/١٣٥ .

أو شجاعة ، وإنما الخمر هى التى تفعل بهم ذلك ، أو تخيّله إليهم . والجواب أن المقام مقام ذكر الخمر وصفتها ، لا مقام الفخر ، فالمطلوب هنا إنما هو توفيتها حقها واستيفاء صفتها ، وتعديد ما يأتى مدحها به ، دون نظر إلى شىء آخر ، ولكل مقام مقال . كما قالوا : إن الحمرة تظهر الشجاعة فى الشجاع ، ولا تحدثها فى الجبان » .

وقد يكون حسان متأثراً فى بيته هذا بقول طرفة :

فإذا ما شربوها وانْتَشَوْا وَهَبُوا كلَّ أَمُونٍ وطِمِرّ

وأحسن من هذا قول عنترة حين يتحدث عن جمعه للمكارم فى صحوه وسكره ، لولا أنه أتى بالمعنى فى بيتين :

فإذا شربتُ فإننى مُستهلِكٌ مالى ، وعِرْضى وافرٌ لم يُكْلَمِ
وإذا صَحَوتُ فما أُقصِّرُ عن نَدًى وكما علمتِ شمائلى وتكرُّمِى

أما زهير فإنه لم يلحق به واحد منهم إذ يقول :

أَخى ثقةٍ لا تُتْلِفُ الخمرُ مالَه ولكنه قد يُتلِفُ المالَ نائلُهْ

وامرؤ القيس صاحب هذا المعنى ، وقد وفاه فى بيت واحد من بيتيه إذ يقول :

وتَعرِف فيه من أَبيه شمائلاً ومن خاله ، ومن يزيد ، ومن حُجُرْ
سماحة ذا ، وبر ذا ، ووفاء ذا ونائل ذا إذا صحا وإذا سكِرْ

وأحسن ما قيل فى ذلك قول البحترى :

وما زلتَ خِلاًّ للنَّدامَى إذا انتشَوْا وراحوا بُدورًا يَستحثُّون أَنجُما
تكرَّمتَ من قبل الكئوسِ عليهمُ فما اسْطَعْنَ أَنْ يُحْدِثْنَ فيكَ تكرُّمَا

## عود إلى مجالس الشراب

ويشير حسان إلى تنعمه ، وما كان يعمر مجلس شرابه من لهو وغناء ، وما يدور به الخمار عليه وعلى نداماه صباحاً من خمر معتقة صافية كعين الديك شعشاع ، فيقول[1] :

---

(١) الديوان رقم ١٥٢ .

وقد غدوتُ على الحانوت يَصْبَحُنى ... من عاتِقٍ مثلِ عينِ الدِّيكِ شَعْشَاعِ [١]
تغدو علَىَّ ونَدْمانِى لِمِرْفَقِهِ ... نَقْضِى اللذاذةَ من لهوٍ وإسماعِ [٢]
إذا نشاء دعوناه فصَبَّ لنا ... من فَرْغِ مُنْتَفَجِ الحَيْزُومِ رَكَّاعِ [٣]

ويقسم أن ارتياده ديار الغساسنة ، لدى كل منزل رفيع العماد ، ومجلس عامر بالنشاوى ، والكأس المخضلة لا تنقطع منها الخمر — أحب إليه من أموال أسلم وغفار وإبلهما ، وذلك إذ يقول [٤] :

لَعمرِى لَحَرْثٌ بين قُفٍّ ورَملةٍ ... بِبَرْثٍ علتْ أنهارُه كلَّ مَخْرِمِ [٥]
لدَى كلِّ بُنْيانٍ رفيعٍ ، ومجلسٍ ... نَشاوَى ،وكأسٍ أُخْضِلَتْ لم تَصَرَّمِ [٦]
أَحبُّ إلى حسانَ — لو يستطيعه — ... من المُرْقِصاتِ من غِفارٍ وأَسْلَمِ [٧]

## من روائع خمرياته أيضاً

ولعل من أجمل ما تحدث به حسان عن الخمر قوله [٨] :

ولقد شربتُ الخمرَ فى حانوتِها ... صهباءَ صافيةً كطَعمِ الفُلْفُلِ
يَسعى علىّ بكأسِها مُتَنَطِّفٌ ... فَيُعِلُّنى منها ولو لم أَنْهَلِ [٩]
إنَّ التى ناولتَنِى فرددتُهـا ... قُتِلَتْ — قُتِلْتَ — فهاتها لم تُقْتَلِ [١٠]

---

(١) الحانوت : الخمار . يصبحنى : يسقينى الخمر صباحاً . العاتق : الخمر لم يفض ختامها .
(٢) لمرفقه : أى متكئ على مرفقه .
(٣) الفرغ : مخرج الماء ونحوه من الإناء . منتفج : ممتلئ . الحيزوم : الوسط . ركاع : مائل منحن ، يقصد زق الخمر .
(٤) الديوان رقم ١٦٠ .
(٥) القف : ما ارتفع عن الأرض . البرث : الأرض اللينة السهلة . المخرم : الأنف فى الجبل أو الطريق فيه .
(٦) أخضلت : بللت .
(٧) المرقصات : المراد بها الإبل . غفار وأسلم : قبيلتان .
(٨) الديوان رقم ١٣ .
(٩) المتنطف : لابس القرط فى أذنه .
(١٠) العلل : الشرب مرة بعد مرة ، والنهل : الشرب مرة . قتلت : ذهبت حرارتها لمزجها بالماء . قتلت : دعاء عليه .

كلتاهما حَلَبُ العصير ، فَعَاطِنِى بزجاجةٍ أَرْخاهما لِلمَفْصِلِ [١]
بزجاجةٍ رَقَصَتْ بما فى قَعْرِها رَقْصَ القَلُوصِ براكبٍ مُسْتَعْجِلِ [٢]

فقد صور الساقى غلاماً مقرّطاً يسعى إليه بالخمر فى خفة ، فيسقيه مرة بعد مرة ، ويقص قصة تلك الخمر الصافية التى تشبه الفلفل فى طعمها ، وكيف شربها صرفاً غير ممزوجة بعد أن ردها على الساقى حين قتلها بالماء ، فإنهما وإن كانتا من أصل واحد إلا أنه يطلب لنفسه أشدهما سورة ، وأبعدهما فى الشارب أثراً ، وقد رقصت الخمر فى زجاجتها ، ورقصت بها الزجاجة من نشوتها ، رقص الناقة الشابة السريعة براكبها المستعجل .

## سائر وصفه

### الناقة والليل

ونعود إلى الوصف عامة فى شعر حسان ، بعد أن أطلنا الكلام فى نعته الخمر . وقد تقدم فى الكلام عن فخره أنه وصف الناقة والصحراء فى معرض الفخر بنفسه ؛ فقال فى وصف الناقة [٣] :

والعِيسُ قد رُفِضتْ أَزِمَّتُها مما يَرَوْنَ بها من الفَتْرِ
وعلَتْ مساوئُها محاسنَها مما أَضَرَّ بها من الضُّمْرِ
كنا إذا رَكَدَ النهارُ لنا نَغْتالُهُ بنَجائبٍ صُعْرِ
عُوجٍ نَوَاجٍ يَغْتَلِينَ بنا يُعْفِينَ دونَ النَّصِّ والزَّجْرِ
مُستقبلاتٍ كلَّ هاجرةٍ يَنْفَحْنَ فى حَلَقٍ من الصُّفْرِ
ومَناخُها فى كل منزلةٍ كَمِبيتِ جُونِىِّ القَطا الكُدْرِ
وَسَما على عودٍ فعارَضَنا حِرْباؤُها أَو هَمَّ بالخَطْرِ

---

(١) كلتاهما : أى الصرف والممزوجة . والمفصل بكسر الميم اللسان ، والمفصل بفتحها واحد المفاصل .
(٢) القلوص : الناقة الشابة القوية على السير الطويلة القوائم .
(٣) الديوان رقم ٨ .

وتَكلُّفى اليومَ الطويلَ وقد صَرَّتْ جنَادِبُه من الظُّهرِ[١]

ثم وصف الليل فقال :

والليلةَ الظلماءَ أُدلِجُها بالقوم فى الدَّيْمومةِ القَفْرِ
يَنْعى الصَّدى فيها أَخاه ، كما يَنْعَى المُفَجَّعُ صاحبَ القَبْرِ
وتحولُ دونَ الكفِّ ظُلمتُها حتى تَشُقَّ على الذى يَسْرِى[٢]

وقد قلنا هناك إن حسان قد جرى فى هذه القصيدة على مذاهب الشعر المعاصرة ، ووصف الناقة والصحراء ، وعطف على الفخر فوفّاه ، وعرضنا قصيدة لعبيد بن الأبرص جرى فيها على هذا النسق .

**السرى بالصحراء**

ونعود فنقول إن حسان قد اشترك بهذا مع الشعراء الجاهليين فى وصف السُّرى بالصحراء ، وتجشم مجاهلها وخفاء معالمها ، ووحشتها ، وإغطاش ليلها ، وزُقاء بومها ، فهذا امرؤ القيس يقول[٣] :

ودَوِّيَّةٍ لا يُهتدَى لفَلاتِها بعِرفانِ أَعلامٍ ولا ضوءِ كوكبِ[٤]
تلافَيْتُها والبومُ يدعو بها الصَّدَى وقدأُلْبِسَتْ أَقراطُها ثِنْىَ غَيْهَبِ[٥]

وهذا هو الأعشى فى قصيدة يمدح بها سلامة ذى فائش من أذواء اليمن ، مطلعها[٦] :

أَجِدَّكَ لم تَغْتمض ليلةً فترقدَها مع رُقَّادِهـا

---

(١) تقدم شرح هذه الأبيات ص ٢٣٤ .
(٢) تقدم شرح هذه الأبيات ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .
(٣) ديوانه ص ٣٤ .
(٤) الدوية : الفلاة المقفرة تتردد فيها الأصوات .
(٥) تلافيتها : قطعتها . الأقراط : جمع قرط بكسر القاف وهو شعلة النار . والأفراط : جمع فرط بفتح الفاء وهو الجبل الصغير ورأس الأكمة والعلم يهتدى به . الغيهب : الظلام الحالك .
(٦) ديوانه ص ٦٩ .

يحدث عن راحلته واجتيازها إلى الممدوح هذه الصحراء بقوله :

تَؤُمُّ سلامةَ ذى فائشٍ هو اليومَ حُمَّ لميعـادِها
وكم دونَ بيتِك من صَفْصَفٍ ودَكْداكِ رملٍ وأعقادِهـا[1]
ويَهْمَاءَ بالليل غَطْشَى الفَلاةِ يُؤْنِسُنى صوتُ فَيَّادِهـا[2]

وكذلك المرقِّش الأكبر[3] فى قصيدته التى مطلعها[4] :

أَمِن آلِ أسماءَ الطلولُ الدوارسُ تُخَطِّطُ فيها الطيرُ قَفْرٌ بَسَابِسُ

يقول :

ودَوِّيَّةٍ غَبْراءَ قد طال عهدُها تَهَالَكَ فيها الوِرْدُ والمرءُ ناعِسُ[5]
قَطَعْتُ إلى معروفها مُنْكَراتِها بعَيْهَمَةٍ تَنْسَلُّ والليلُ دامِسُ[6]
تركتُ بها ليلاً طويلاً ومنزلاً ومَوْقِدَ نارٍ لم تَرُمْهُ القَوابِسُ
وتَسمع تَزْقَاءً من البُومِ حولَنا كما ضُرِبَتْ بعدَ الهُدُوِّ النَّواقِسُ

فترى أن حسان وهؤلاء الشعراء قد التقوا جميعاً فى معانيهم حول الصحراء ، غير أن كلا من امرئ القيس والمرقش كان أسمح عبارة ، وألطف أوّليَّة ، وكان المرقش أجمل تصويراً وأحسن ترتيباً ، وأبرع عرضاً ، وأحلى لفظاً ، وخاصة فى تعميمه لزقاء البوم ، واختياره لفظ تزقاء ، وفى تشبيهه له مع وحشة الصحراء وسكون الليل بأصوات النواقيس بعد الهدوء .

وكان حسان فيما ذكر من نعى الصدى أخاه نعى المفجع أقرب إلى تصوير

---

(١) الصفصف : الأرض المستوية لا تنبت شيئاً . الدكداك : المتلبد من الرمل . الأعقاد : جمع عقد وهو ما تراكم وانعقد من الرمل .

(٢) اليهماء : الصحراء المطموسة المسالك لا يهتدى فيها . الغطشى : المظلمة . الفياد : ذكر البوم .

(٣) المرقش الأكبر هو عوف وقيل عمرو بن مسعد من بكر بن وائل ، وهو عم ربيعة بن سفيان المعروف بالمرقش الأصغر .

(٤) شعراء النصرانية ١ / ٢٩٠ .

(٥) الورد : القوم يردون الماء .

(٦) العيهمة : الناقة السريعة .

الحقيقة ، وحكاية الطبيعة ، بتشبيهه أصوات البوم بأصوات النعاة والنوائح ، فيما تبعثه فى النفوس من كآبة وتحزين ، حتى اعتاد الناس أن يتشاءموا بها ، ويفزعوا منها .

## قصيدة أخرى

وهذا حسان فى قصيدة أخرى[١] يصف رسوم المنزل العافى ، وما صنعت به يد البلى ، وما فعلت الرياح والأمطار ، فيقول :

لِمَن منزلٌ عافٍ كأَن رُسومَهُ ... خَيَاعِيلُ رَيْطٍ سابِرِيٌّ مُرَسَّمِ[٢]

خَلاءُ المَبَادِى ما به غيرُ رُكَّدٍ ... ثلاثٍ كأَمثالِ الحمائم جُثَّمِ[٣]

وغيرُ شَجيجٍ ماثلٍ حالفَ البِلَى ... وغيرُ بقايا كالسَّحِيقِ المُنَمْنَمِ[٤]

تَعُلُّ رياحُ الصيفِ بالِى هَشِيمِهِ ... على ماثلٍ كالحوض عافٍ مُثَلَّمِ[٥]

كَسَته سرابيلَ البِلى بعدَ عهدِهِ ... وجَوْنٌ سَرَى بالوابلِ المُتَهَزِّمِ[٦]

وقد كان ذا أَهلٍ كثيرٍ وغِبطةٍ ... إذ الحَبْلُ حبْلُ الوصلِ لم يَتَصَرَّمِ

وإذ نحن جيرانٌ كثيرٌ بغِبطةٍ ... وإذ ما مضى من عيشنا لم يُصَرَّمِ

وكلُّ حَثِيثِ الوَدْقِ مُنْبَعِقِ العُرَى ... متى تُزْجِهِ الريحُ اللواقحُ يَسْجُمِ[٧]

---

(١) الديوان رقم ١٠ .

(٢) عاف : زائل . الرسوم : ما بقى من آثار الديار . الخياعيل : جمع خيعل ، ثوب يخاط أحد شقيه ويترك الآخر تلبسه المرأة كالقميص . الريط : ثوب رقيق لين . السابرى : ثوب رقيق جداً . مرسم : فيه رسوم .

(٣) المبادى : جمع مبدى وهو المطلع الظاهر . الركد الثلاث : يقصد بها الأثافى والأحجار التى كانت تنصب فوقها القدور . جثم : جمع جاثم أى رابض .

(٤) شجيج : يقصد به الوتد المشجوج .

السحيق المنمنم : التراب الذى تركت به الريح آثاراً كالكتابة .

(٥) تعل رياح الصيف : تسفى هشيمه البالى مرة بعد مرة .

(٦) جون سرى : سحاب أسود أمطر ليلا . الوابل المتهزم : المطر الشديد ذو الوقع والصوت .

(٧) حثيث الودق : سحاب سريع المطر . منبعق العرى : مندفع الرباط والمراد المطر المفاجئ .

ضعيفُ العُرَى دانٍ من الأَرض بَرْكُهُ  مُسِفٌّ كمثل الطَّودِ أَكْظَمَ أَسْحَمِ[٨]

وهو بهذا قد تبع المنهج البدوى فى مساءلته عن المنزل العافى ، وتشبيهه رسومه بقطع الريط من الثياب المعلمة ، ووصفه إياه بخلاء الأماكن الظاهرة من حوله ، وذكره لحجارة القدر الماثلة كالحمائم الجاثمة ، وللوتد المشجوج ، وبقايا الآثار الدواثر اختلفت عليها رياح الصيف فكستها ثياب البلى ، وتدفق السحاب بوابل من المطر فعفّى عليها ، وعاد إلى المنزل العافى ، فذكر ما كان يغص به من الأهل والجيران والغبطة ، والوصل دائم ، والعيش مونق ، ثم رجع إلى الحديث عما أصابه من عفاء ، وما عاون الرياح على بلاه من كل سحاب ممطر متتابع هطال ، دان من الأرض لثقله بالماء ، كأنه فى امتلائه وسحمته الطود الأشم .

## الجدب والقحط

وقد حاول حسان أن يرسم صورة للجدب والقحط ، يصل بها مفاخر قومه فى الجود والندى ، فما كاد يمسك بريشة المصور فيخط بها خطوطاً قليلة عامة حتى ألقاها جانباً ، وترك الصورة كاسفة ناقصة ، وذلك إذ يقول :

وإنا إذا ما الأُفْقُ أمسى كأنما  على حافَتَيْه مُمْسِياً لونُ عَنْدَمِ
لَنُطعِم فى المَشْتَى ونَطعَنْ بالقَنا  إذا الحربُ عادت كالحريقِ المُضَرَّمِ[١]

فأين هذا من قول الفرزدق حين يصف الجدب وصفاً دقيقاً جامعاً رائعاً فى قصيدته التى مطلعها [٢] :

عَزَفْتَ بأَعشاشٍ وما كدتَ تَعْزِفُ  وأَنكرتَ من حَدْراءَ ما كنتَ تَعْرِفُ

فيقول :

إذا اغبرَّ آفاقُ السماءِ وكَشَّفَتْ  كُسورَ بيوتِ الحَيِّ حمراءُ حَرْجَفُ[٣]

---

(١) مسف : هابط . أكظم : ممتلئ . أسحم : أسود .
(٢) تقدم شرح هذين البيتين فى الكلام عن الفخر .
(٣) ديوانه ٢/٥٥١ .
(٤) آفاق السماء : جوانبها . كسور البيت : جمع كسر جوانبه . الحرجف : الريح الشديدة المهبوب .

وهَتَّكتْ الأَطْنابَ كلُّ عظيمةٍ لها تامِكٌ من صادق النِّيِّ أَعرَفُ[١]
وجاءَ قَريعُ الشَّوْلِ قبلَ إفالِها يَزِفُّ، وراحتْ خلفَه وهى زُفَّفُ[٢]
وباشرَ راعيها الصَّلَى بلَبانِه وكَفَّيْه حَرَّ النارِ ما يَتَحَرَّفُ[٣]
وأَوْقدَت الشِّعْرَى مع الليل نارَها وأَمست مُحُولا جِلدُها يَتَوسَّفُ[٤]
وأَصبحَ موضوعُ الصَّقيعِ كأَنه على سَرَواتِ النِّيبِ قُطنٌ مُنَدَّفُ[٥]
وقاتَل كلبُ الحيِّ عن نار أَهلِهِ ليربضَ فيها، والصَّلى مُتكَنِّفُ[٦]
وجدتَ الثَّرى فينا إذا يَبِس الثرى ومن هو يرجو فضلَه المُتَضَيِّفُ[٧]

وقد ذكر حسان السحاب ذا المطر الكثير فى قوله « وجون سرى بالوابل المتهزم »، ثم كرر المعنى بعد ذلك حين عطف عليه بقوله : « وكل حثيث الودق منبعق العرى»، ثم كرره أخرى فى البيت التالى بقوله : « ضعيف العرى»، كما أنه أتى ببيتين متعاقبين فى معنى واحد ، هما :

وقد كان ذا أَهلٍ كثير وغبطة إذ الحبلُ حبلُ الوصلِ لم يتصرم
وإذ نحن حيران كثير بغبطة وإذ ما مضى من عيشنا لم يُصَرَّمِ

وأكثر كلماتهما مكررة ، وليس فى أحدهما فضل معنى على صاحبه ، مما يستبعد معه أن يقع الشاعر فى مثل هذا التكرار ، الذى يكاد يكون ضرباً من لغو الكلام ، ويجعل المرء يميل إلى أن هذين البيتين كانا فى الأصل بيتاً واحداً ،

---

(١) الأطناب : جمع طنب وهو الرباط تشد به الخيام . التامك : السنام العظيم . النى : بكسر النون السمن . والنى بفتح النون : الشحم . أعرف : طويل العرف .

(٢) قريع الشول : القريع الفحل لم يمسه حبل ، والذى يقرع الذوق . الشول : الذوق التى نقصت ألبانها . الأفال : الصغار . يزف : يعدو .

(٣) الصلى : النار . اللبان : الصدر أو وسطه .

(٤) الشعرى : نجم تطلع أول الشتاء ، يريد أنها تظهر بالسماء لعدم السحاب . المحول : الجدب . يتوسف : يتقشر . أى أن الأرض للجدب وعدم المطر يتقشر وجهها .

(٥) الصقيع : الجليد . سروات النيب : ظهور الإبل المسنة .

(٦) متكنف : محاط به .

(٧) الثرى : الندى والخصب ، المتضيف : طالب الضيافة .

اختلفت روايته ذلك الاختلاف اليسير ، فصار فى صورة بيتين لم يفطن الناسخون لأمرهما . وكان الأولى به أن يؤخر هذين البيتين حتى ينتهى من الكلام عن السحاب ، فلا يفصل بهما بين المتعاطفين فى قوله : « وجون سرى » وقوله : « وكل حثيث الودق » ولايخل ذلك بالمعنى المراد ، ولا يضر بنظم القصيدة ، بل يتيح ضم الشبيه إلى شبيهه ، واجتماع النسيب إلى نسيبه .

فأنت تلمح فى هذه القصيدة شيئاً من قلق المعانى ، يتمثل فى تكرارها ، كما يتمثل فى الفصل بينها بما يجعل تأخيره .

## تخيره ألفاظ المطالع

أما ألفاظها فمنتخبة ، لأن أكثر الشعراء الجاهليين كانوا حين يفتتحون قصائدهم بذكر الرسوم العافية والرباع المحيلة يقعون أحياناً فيما لا حيلة لهم فيه من ذكر أعلام أو أسماء لمواضع أو غيرها قد يستبشع السامع ذكرها. كملحوب والقطبيات ، وراكس وثعيلبات وعردة حبر وقفا فى قول عبيد :

أقفر من أهله ملحوبُ فالقُطَّبِيَّاتُ فالجَنوبُ
فراكِسٌ فثُعَيْلِباتٌ فذاتُ فِرْقَينِ فالقَلِيبُ
فعَرْدَةٌ فَقَفَا حِبرٌ ليس بها منهم عَرِيبُ

وفى شعر النابغة « جنبا أريك ، ومُجْتَمَع الأشراج » ، فى قوله :

عفا ذُو حِسًى من فَرْتَنَى فالفَوارِعُ فجَنْبا أَرِيكٍ فالتِّلاعُ الدوافع
فمُجْتَمَعُ الأَشْراجِ غيَّر رسمَها مصايفُ مَرَّت بَعْدَنا ومَرابعُ

« ومُرْفَضُّ الحَبِيّ ووُعال ، وأمواه الدنا ، وعويرضات ، فى لامية له مطلعها :

أَمِن ظَلَامَةَ الدِّمَنُ البوالى بِمُرْفَضِّ الحَبِيِّ إلى وُعَالِ
فأَمواهُ الدُّنَا فعُوَيْرِضاتٌ دوارُس بعد أَحياءٍ حِلالِ

وفى شعر أوس بن حجر « أعلى تَوْلب ، وبَطْنُ السُلَىّ ، وقوّ » ، فى فائية له مطلعها :

تَنَكَّرَ بَعْدِى من أُمَيْمَةَ صَائِفُ فَبَرْكٌ فأَعْلَى تَوْلَبٍ فالمَخَالِفُ
فبَطْنُ السُّلَىِّ فالسِّخَالُ تعذَّرَتْ فمَعْقَلَةُ الأَمطار منها فوَاحِفُ
فقَوٌّ فرَهْبَى فالسَّلِيلُ فعاذِبٌ مَطافِيلُ عُوذُ الوحشِ فيهاعَوَاطِف

وفى شعر الحطيئة « مسحلان وحامره » فى رائيته[1] :

عفا مِسْحِلانٌ من سليمى فحامِرُهْ تَمَشَّى به ظِلْمانُهُ وجَآذِرُهْ

ولكن حسان خلص هنا من أثر هذه الهجنة ، ولا يؤخذ عليه ذكره كلمة « خياعيل » ، فهى وإن كانت شبيهة بالغريب فإنها تبادر النفس بوضوح الدلالة على المعنى المقصود بها ، وهو تلك الثياب الأخلاق ، فكانت هذه المناسبة بين اللفظ والمعنى داعية إلى قبولها وانتفاع الشاعر بها ، وأما ما عداها من ألفاظ الافتتاح فقد وفق فى انتخابها ، كلفظ « المبادى » الذى لم نره لغيره ، وهو أول من دل به على المعنى المقصود منه فى هذا البيت ، وهو المطالع التى تكون أول ما يبدو للنازل بالمكان ، فهى جمع «مبدَى » أى مظهر ومطلع ، فحسان مستخرج هذه الكلمة وواضعها هذا الموضع ، ولا تزال تبدو عليها طلاوة الجدة وعدم الابتذال بالاستعمال ، وإن كان المفرد قد ورد فى بيت لبعض[2] مادحى أبى دُلَف فى قوله :

كلُّ من فى الأَرض من عَرَبٍ بين مَبْداهُ ومُحْتَضَرِهْ
مستعيرٌ منكَ مَكْرُمَةً يكْتَسِيها يومَ مُفْتَخَرِهْ

والمبدى فى بيت هذا الشاعر سكنى البادية ، مقابل سكنى الحضر ، ولكن اختلاف المعنى لا يفسد ما نريد تقريره ، من أن جمع هذه الكلمة أجمل من المفرد لفظاً وأحلى جرساً ، ومثله وهو من لطائف العربية كلمة لب وألباب ، فقد استفصحوا جمع هذه الكلمة دون إفرادها ، ولذلك لم ترد فى القرآن إلا مجموعة .

ومن كلماته المتخيرة « الحمائم الجثَّم ، والشجيج الماثل ، والسحيق المنمنَم ، والحوض المثلَّم ، وسرابيل البِلى ، والجَوْن السارى ، والوابل المتهزِّم ، وحثيث الوَدْق ،

---

(١) ديوانه ص ٨ .
(٢) هو على بن جبلة الملقب بالعكوك .

والريح اللواقح ، والبَرْك المسِفّ ، والطود الأسحم » وهذه الكلمات وغيرها مسلوكة فى عبارات حسنة التأليف ، وقواف قوية ، ليس فيها ما يؤخذ على الشاعر إلا ما سبقت الإشارة إليه .

## أثر الغزل فى وصف حسان

تقدم أن الغزل من المناسبات التى دعت حسان إلى الوصف ، وقد حمله على التأنق فى وصف الديار ومساءلة الرسوم وذكر السحاب والمطر ، على ما جاء بقصيدته السالفة ، كما دعاه أيضاً إلى وصف رحيل أحبابه ، وما خلفه فى قلبه من أسى ولوعة ، تطاول ليله من بعدهم .

## البرق والسحاب والمطر

استمع إليه فى قصيدة مطلعها[1] :

أَلم تَسأَل الرَّبْعَ الجديدَ التكلما ... بمَدْفَعِ أَشْداخٍ فبُرْقَةِ أَظْلَمَا
أَبَى رسمُ دارِ الحىِّ أَن يتكلما ... وهل يَنطِقُ المعروفَ من كان أَبْكما
بقاعِ نَقيعِ الجِزْعِ من بطن يَلْبَنٍ ... تَحَمَّلَ منه أَهلُهُ فتَتَهَّمَا[2]

إذ يقول :

أَقامتْ به بالصيف حتى بَدا لها ... نَشَاصٌ إذا هَبَّتْ له الريحُ أَرْزَما[3]
فلما دنَتْ أَعضادُهُ ودنا لهُ ... من الأَرض دانٍ جَوْزُهُ فتَحمْحَمَا[4]

---

(١) الديوان رقم ٤ .

(٢) أشداخ : موضع فى عقيق المدينة ، ومدفعه : مجرى سيوله ، البرقة : الأرض ذات الحجارة المختلفة الألوان . أظلم : جبل فى أرض بنى سليم . القاع : الأرض السهلة المطمئنة انفرجت عنها الجبال والآكام . الجزع : منعطف الوادى ووسطه . يلبن : جبل قرب المدينة . تتهم : صار إلى تهامة .

(٣) النشاص : السحاب المرتفع يقوم فى عرض السماء . أرزم : رعد .

(٤) أعضاده : نواحيه ، يريد أنه قد تجمع . جوزه : وسطه . تحمحم : صوت ورعد روى البيت هكذا فى مخطوط مصر ٢٩ أدب ، وفى مطبوع ليدن .

تَحِنُّ مَطَافِيلُ الرِّباعِ خلالَهُ ... إذا اسْتَنَّ فى حافَاته البرقُ أسجَما[١]

وكاد بأَكْنَافِ العَقيقِ وَئيدُهُ ... يَحُطُّ من الجَمَّاء رُكنا مُلَمْلَمَا[٢]

فلما علا تُرْبانَ فانْهَلَّ وَدْقُهُ ... تَداعَى وأَلقى بركَهُ وتَهَزَّمَا[٣]

وأصبح منه كلُّ مدفَعِ تَلْعَةٍ ... يَكُبُّ العِضَاهَ سيلُهُ ما تَصَرَّمَا[٤]

تنادَوْا بليلٍ فاستَقَلَّتْ حُمولُهم ... وعَالَيْنَ أَنْماطَ الدِّرَقْلِ المُرَقَّمَا[٥]

عَسَجْنَ بأَعناق الظباءِ وأَبْرَزَتْ ... حَواشِى بُرودِ القِطْرِ وَشْياً مُنَمْنَمَا[٦]

**حسان وبعض الشعراء**

فسنرى أنه قد وفى السحاب والمطر حقهما من الوصف، ومضى فى إثر عبيد الذى اشتهر بين الجاهليين بجمال وصفه للسحاب والبرق والمطر، وإن لم يلحقه فى قوله[٧]:

يا منْ لبرقٍ أَبيتُ الليل أَرْقُبُهُ ... من عارضٍ كبياض الصبح لَمَّاحِ[٨]

دانٍ مُسِفٍّ فُوَيْقَ الأَرضِ هَيْدَبُهُ ... يكاد يدفعه من قام بالرَّاحِ[٩]

كأَنَّ رَيِّقَه لما علا شَطِباً ... أَقْرابُ أَبْلقَ يَنفى الخيلَ رمّاحِ[١٠]

---

(١) المطافيل: الإبل معها صغارها. الرباع: جمع ربع وهو فصيل الناقة ينتج فى الربيع، يريد أن صوت الرعد خلال السحاب كأصوات تلك المطافيل، استن: خفق. أسجم: سال.

(٢) أكناف: نواحى. العقيق: وادى المدينة. وئيده: صوته الشديد. الجماء: موضع بالمدينة عن يمين الخارج منها إلى مكة. الركن الململم: القوى المتجمع بعضه إلى بعض.

(٣) تربان: واد بين الحفير والمدينة. انهل ودقه: انسكب مطره. تداعى: تصدع. ألقى بركه: لزم مكانه. تهزم: تفجر بالماء وأحدث الصوت.

(٤) التلعة: ما ارتفع من الأرض ومسيل الماء إلى الوادى. العضاه: جمع عضه وهى الشجرة ذات الشوك. يكبها: يطرحها على الأرض.

(٥) استقلت حمولهم: رحلوا. أنماط: أنواع. الدرقل: ضرب من الثياب. المرقم: الموشى.

(٦) عسجن: مددن. برود القطر: ثياب حمر من ثياب اليمن. الوشى: الزخرف. منمنم: به نمنمة، وهى خطوط قصيرة دقيقة متقاربة.

(٧) ديوان عبيد ص ٢٨ ومطلع القصيدة:

هبت تلوم وليست ساعة اللاحى ... هلا انتظرت بهذا اللوم إصباحى

(٨) عارض: سحاب.

(٩) مسف: شديد الدنو من الأرض. هيدبه: ماتدلى منه.

(١٠) ريقه: أوله. شطب: جبل. أقراب: جمع قرب كقفل الخاصرة. أبلق: مختلط السواد والبياض.

كأَن ما بين أعـلاه وأسفلِهِ ريْطٌ منَشَّرةٌ أَو ضوءُ مصباحِ[١]
كأَن فيه عِشارًا جِلَّةً شُرُفاً شُعْثاً لَهامِيمَ قد هَمَّتْ بإرشاحِ[٢]
هَبَّت جَنوبٌ بأُولاهُ ومال به أَعجازُ مُزْنٍ يَسُحُّ الماءَ دَلَّاحِ[٣]
فأَصبح الروضُ والقيعانُ مُتْرعةً من بين مُرْتفِقٍ منه ومُنْطاحِ[٤]

ولكنه سامى لبيدًا وجاوزه فى قصيدته التى مطلعها :

أَلم تُلْمِمْ على الدِّمَنِ الخوالى لِسَلْمى بالمَذانِبِ فالقُفَالِ

حين تعرض لما تعرض له حسان وعبيد من وصف البرق والسحاب والمطر بقوله :

أَصاحِ ترى بُريْقاً هبَّ وهْناً كمصباح الشَّعِيلةِ فى الذُّبالِ
أَرِقتُ له وأَنْجدَ بعد هَدْءٍ وأَصحابى على شُعَب الرِّحالِ[٥]
يُضيءُ رَبابُه فى المُزْن حُبْشاً قيامـاً بالحراب وبالأَلالِ[٦]
وأَصبح راسياً بِرِضَامِ دَهْرٍ وسال به الخمائلُ فى الرمالِ[٧]
وحَطَّ وحوشَ صاحَةَ من ذُراها كأَنَّ وعُولَها رُمُكُ الجِمالِ[٨]

---

(١) ريط : جمع ريطة ، وهى الملاءة من قطعة واحدة ، والثوب الرقيق اللين .

(٢) عشار : جمع عشراء كنفساء . وهى من الإبل ما حملت منذ عشرة أشهر . جلة : مسنة . شرف : جمع شارف وهى الكبيرة . شعث : مغبرة . لهاميم : غزيرة اللبن . يقال أرشحت الناقة أى قوى فصيلها على المشى .

(٣) جنوب : ريح تقابل الشمال . مزن : جمع مزنة ، وهى السحابة ، أو البيضاء ، أو ذات الماء دلاح : كثير الماء .

(٤) مرتفق : محتبس . منطاح : سائل لا يمنعه شىء .

(٥) أنجد : اتجه إلى نجد .

(٦) الرباب : جمع ربابة وهى السحابة البيضاء . الألال : جمع ألة وهى من آلات الحرب . المزن : جمع مزنة وهى السحابة أو البيضاء منه أو ذات الماء — يريد أن السحاب الأسود يلتمع فيه البرق يشبه الحبشان الواقفين بالحراب .

(٧) الرضام : جمع رضمة وهى صخور بعضها فوق بعض . دهر : جبل . الخمائل : منابت العشب والشجر الملتف .

(٨) صاحة : جبل وهضاب حمر قرب عقيق المدينة . الرمك : السود الواحد أرمك .

على الأعراض أيمنُ جانبيهِ وأيسرُه على كوْرَىْ أُثَالِ[١]

ثم أجمل حسان الإيجاز فى حديثه عن رحيل القوم، وأحسن الوصف لمسيرهم، والإشارة لما فى حمولهم من ظعائن مترفات منعمات ، وما أجمل قوله فى تمثيله لأعناق النساء بأعناق الظباء حين يقول : « عسجن بأعناق الظباء » . إلا أن كثيراً من الألفاظ التى جاءت بوصفه هنا بعيدة عن السهولة التى يقتضيها المقام ، وفيها غرابة قد تذهب ببعض بهاء المعنى وحسن جرس العبارة وموسيقاها .

## طول الليل

ثم هو فى قصيدة أخرى يصف تطاول الليل عليه فيقول[٢] :

تطاوَلَ بالخَمَّان ليلِي فلم تَكَدْ تَهُمّ هَوادِى نجمِه أن تَصَوَّبا[٣]
أَبيتُ أُراعيها كأنّى مُوَكَّلٌ بها لا أُريدُ النومَ حتى تَغَيَّبَا
إذا غار منها كوكبٌ بعدَ كوكبٍ تُراقِبُ عينِى آخرَ الليلِ كوكبا[٤]
غَوَائرَ تَتْرَى من نجوم تَخَالُها مع الصبحِ تَتْلوها زواحفَ لُغَّبَا[٥]

ويصف خوفه صروف النوى ، وما أحدثه به الفراق المروع ، وما أنذره الغراب من تفرق الشمل بقوله :

أَخاف فُجاءات الفِراقِ ببغتــةٍ وصَرْفَ النَّوَى من أن تُشِتَّ وتَشْعبَا[٦]
وأيقنتُ لما قَوَّضَ الحَىُّ خَيْمَهمْ بِرَوْعاتِ بَيْنٍ تتركُ الرأسَ أَشْيَبَا[٧]

---

(١) الأعراض : القرى واحد: عرض . أثال : جبل ، وكوراه جبلان قريبان منه .
(٢) الديوان رقم ٢٩ .
(٣) الخمان : موضع بالشام قرب دمشق . الهوادى : الأوائل والهادية من الشىء أوله وما تقدم منه . التصوب : الانحدار والغروب .
(٤) غار : غرب . يريد أن هناك كواكب تظل مرئية له فالليل طويل لا ينقضى .
(٥) غوائر : جمع غائر أى غارب . زواحف : بطيئات : لغب . جمع لاغب أى متعب ومنهوك .
(٦) صرف النوى : حوادث البعد . تشت وتشعب : تفرق .
(٧) الروع : الفزع .

وأسمَعَكَ الداعى الفصيحُ بفُرقةٍ وقد جَنَحَتْ شمسُ النهارِ لتَغْرُبَا[١]
وبَيَّنَ فى صوتِ الغرابِ اغترابُهُمْ عشيةَ أَوْفَى غصنَ بانٍ فَطَرَّبَا[٢]
وفى الطير بالعَلياء إذْ عَرَضَتْ لنا وما الطيرُ إلا أن تَمُرَّ وتَنْعَبَا

وهو فى وصفه لطول الليل عليه، ورعيه لكواكبه التى كأنها لا تغيب، فما يغرب منها كوكب إلا لمع غيره، مشبه للجاهليين فى تمثيلهم لما يريدون من ذلك. يقول سُوَيْدُ بن أبى كاهل[٣]:

وإذا ما قلتُ ليلٌ قد مضى عَطَفَ الأَوَّلُ منه فرَجعْ
يَسْحَبُ الليلُ نجوماً ظُلَّعًا فَتوَالِيها بطيئاتُ التَّبَعْ[٤]
ويُزَجِّيها على إبطائها مُغْرَبُ اللونِ إذا الليلُ انقشَعْ[٥]

ويقول عدىّ بن الرِّقاع[٦]:

وكأَن ليلِى حينَ تَغْرُبُ شمسُهُ بسوادِ آخَرَ مثلِهِ موصولُ
أَرعى النجوم، إذا تَغَيَّبَ كوكبٌ أبصرتُ آخرَ كالسِّراجِ يَجُولُ

وتبعهم فى ذلك المحدثون، يقول على بن العباس الرومى[٧]:

رُبَّ ليلٍ، كأَنهُ الدهرُ طُــولاً قد تناهى فليس فيه مَزِيدُ
ذى نُجومٍ، كأَنهن نجومُ الشَّـ ـيْبِ، ليستْ تزولُ لكن تَزِيدُ

وقد زاد حسان عليهم فى المعنى بقوله: إنه يراعى النجوم مراعاة الموكل بها، وإنه لا ينام حتى تغيب، وإن عينه تراقبها آخر الليل، ولم يتحدث منهم عن رعى

---

(١) جنحت: مالت.
(٢) بين تبين: أوفى. أتى.
(٣) الأمالى ١/١٠١.
(٤) ظلع: جمع ظالع أى أعرج.
(٥) يزجيها: يدفعها. مغرب اللون: المغرب: الصبح وكل شىء أبيض.
(٦) الأمالى ١/١٠٠.
(٧) الأمالى ١/١٠١.

النجوم إلا عدى ، ولكنه لم يبلغ به ما بلغ حسان ، ولم يكن حسان فى لفظه وأسلوبه بأقل منهم وضوحاً وحسناً وسماحة وسلاسة .

## الرحيل

ولكنه فى وصفه لرحيل القوم يغلب عليه الحزن ، وينقاد للطيرة ، فيتشاءم بصوت الغراب ، ويراه النذير المفصح بالفراق المحتوم ، كما يرى أن أخبار الطير حين تعترض بالسماء أحكام لا تقبل النقض والتأويل ؛ حتى يصرفه ذلك عن العناية بوصف الظاعنين ، وما يلابس ارتحالهم من حركة ، كما فعل ذلك الحارث بن حِلِّزَة فى قوله :

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عِشاءً ، فلمّا ... أَصبحوا أَصبحتْ لهم ضوضاءُ
من مُنادٍ ، ومن مُجيبٍ ، ومن ... تَصْهالِ خيلٍ خِلالَ ذاكَ رُغَاءُ

## الطير والطيرة

ولم يكن حسان بدعاً فى تطيره ، فقد كان العرب يتيمنون بالطير ويتشاءمون بها ، ويذكرون سانحها وبارحها[1] . قال ذو الرمة :

خليلىَّ لا لاقَيْتُما ما حَيِيتُما ... من الطير إلا السانِحاتِ وأَسْعَدَا

وقال النابغة :

زَعم البَوارِحُ أَنَّ رحلتَنا غدًا ... وبذاكَ تَنْعابُ الغرابِ الأَسودِ

وقال كثير :

أَقول إذا ما الطيرُ مَرَّتْ مخيفة ... سوانِحُها تَجْرِى ولا أَستثيرها

وكان من أشأم ما يتطيرون منه الغراب ، يرون نعيبه أصدق خبراً ، والزجر به أعم موضعاً . قال بعضهم :

---

(١) قالوا : السانح ما جاء عن يسارك متجهاً إلى يمينك فولاك ميامنه ، والبارح ما كان بعكسه ، وقيل بل السانح ما جاء عن يمينك والبارح ما جاء عن شمالك. قال ابن دريد : وأهل نجد يتيمنون بالسانح ويتشاءمون بالبارح ، وعلى العكس منهم أهل الحجاز .

وصاح غرابٌ فوقَ أعوادِ بَانَةٍ بأَخبار أَحبابى فَقَسَّمَنِى الفِكْرُ
فقلتُ غرابٌ باغترابٍ . وبانَةٌ تُبِينُ النَّوَى ؛ تلك العِيَافَةُ والزَّجْرُ

**الصيد والطرد**

ولحسان قصيدة قد تكون نسيج وحدها فى شعره، اقتصر فيها على اليسير من الغزل ، ثم تحدث بذكريات اللهو والقصف ، ووصف مجلس الشراب عند صالح ابن علاط[1] ، أحد سادة بنى سليم غير بعيد من المدينة ، بين البيض النواعم فى الرياط ، والندامى الكرام الذين اجتمعوا آخر الليل لاحتساء الخمر المعتقة ، عند ذلك الفتى العربى الشريف الذى يهين لها المال ، وقد ظلت قيانه يعزفن حوله كالظباء ، بين متطاولات بأعناقها وأخر مستكنات ، يطفن بالكأس على الشرب الكرام ، وقد مهدت لهم البسط المخملة والأنماط الرقاق ، حتى إذا آذن المجلس بانقضاء ، وهبَ أصدقاءه ونداماه هؤلاء القيان ، هبة مبرأة مما قد يقع من أمثالهم من العبث والرفث فى مثل ذلك المجلس .

ثم انتهى إلى ذكر الركوب والصيد — وتلك هى المرة التى عرض فيها لوصف الصيد — وهى حال لا يزال الأشراف من الفتيان يتباهون بها إلى اليوم ، لا يقدر على معاناة لذاتها إلا أصحاب الفراغ واليسار والسؤدد من أهل زماننا هذا ، ومطلع القصيدة[2] :

لِمن الدارُ أَقفرتْ ببُوَاطِ بينَ سُفْعٍ رَوَاكِدٍ كالغِطَاط[3]

وفيها يقول :

رُبَّ لَهْوٍ شهِدتُه أمَّ عمرٍو بين بِيضٍ نواعمٍ فى الرِّيَاطِ
معْ نَدامَى بيضِ الوجوهِ كرامٍ نُبِّهوا بعدَ خَفْقَةِ الأَشْرَاطِ[4]

---

(١) المظنون أن صالح بن علاط هذا قد مات فى الجاهلية ( الإصابة ١/٣٢٨ ) .
(٢) الديوان رقم ١٨ .
(٣) بواط : موضع . سفع : جمع أسفع والسفعة سواد يميل إلى حمرة . رواكد : ثابتة . الغطاط : جمع غطاطة وهى ضرب من القطا ، ويريد بالسفع الرواكد الحجارة التى تنصب عليها القدر .
(٤) خفقة الأشراط : مغيبها ، والأشراط نجوم لا تغيب إلا آخر الليل .

لِكُمَيْتٍ كأنّها دمُ جَوْفٍ عُتِّقَتْ من سُلافَةِ الأَنْبَاطِ [١]
فاحتواها فتًى يُهِينُ لها المـا لَ ، ونادمتُ صالحَ بنَ عِلَاطِ
ظَل حولى قِيانُه عازفاتٍ مثلَ أُدْمٍ كَوَانِسٍ وعَوَاطِ [٢]
طُفن بالكأْس بين شَرْبٍ كرامٍ مَهَّدوا حُرَّ صالحِ الأَنْمَاطِ [٣]
ساعةً ؛ ثم قال : هن بَدَادٍ بينكم غيرَ سُمعةِ الإختلاطِ [٤]

والظاهر أن حسان قد قال شعره هذا قبل اتصاله بالغساسنة، فلو أنه زارهم قبله لما زهاه أن يتحدث بمنادمته لصالح بن علاط بعد منادمته الملوك من آل غسان ؛ ومن لقيَ البحر استقل السواقيا . والمعقول أن يكون قد بدأ بمخالطة الأشراف والسادة، ثم تطلع إلى زيارة الملوك ، وأن يقصد الأقربين داراً ، ثم يرحل إلى النازحين مكاناً .

ثم مضى حسان يصف خروجه للصيد ، واجتيازه الفلاة الواسعة المخوفة كأنها من ملاعب الجن ، متأبطاً سيفه ، راكباً جواده ، وسار فى أثر المشهورين من الشعراء بوصف الصيد ، فذكر ما جرت بذكره عادتهم من اشتواء السديف ، وتروّعهم بأصوات الحمر الوحشية ، وإعدادهم للجواد السابح اليَعْبوب ، الذى لم يذلل بالرباط والمعلف ، والذى بذل فى تغذيته وتهيئته ما جعلهم يوصون راكبه الخبير بالصيد أن يسكّن من حدته ويكف من غربه ، وكيف فرت أوابد الوحش حين أبصرته مدمج المتن كمفتول الحبال ، فوقه داجن بالطراد ، عالم بمواطن القتل ، تأكل الوحش من صيده ، فيتابع فيه بين أتان طويلة ، وحائل سمينة ، وحمار وحشى ، طعنه فى عنقه فجعل له من دمائه قلادة .

فهو قد وصف خروجه للصيد بقوله :

---

(١) الكميت : الخمر لونها بين السواد والحمرة. السلافة أفضل الخمر ، الأنباط : المراد زراع الشام .

(٢) أدم كوانس : ظباء فى كناسها ، والكناس مستكن الظباء فى الشجر . عواط : متطاولات لتناول ورق الشجر وغيره .

(٣) الشرب : الجماعة الشاربون . الأنماط نوع من البسط له خمل .

(٤) بداد : مقتسمات . غير سمعة الاختلاط : دون ما يكون من أثر الشراب من اختلاط العقل وعمل ما لا يليق ، أو أنه فعل ذلك فى صحوه دون أن يختلط عقله من الشراب .

رب خَرْقٍ أَجَزْتُ مَلعَبَةَ الجِن ۱ معى صارمُ الحَديدِ إِبَاطِى[1]
فوقَ مُسْتَنْزِلِ الرَّديفِ مُنِيفٍ مثلِ سِرْحانِ غابة وَخَّاطِ[2]
بينما نحن نشتوى من سَديفٍ راعَنا صوتُ مِصْدَحٍ نَشَّاطِ[3]

**مستنزل الرديف :**

وقد ذكر هرشفيلد[4] والبرقوقى[5] أن المقصود بمستنزل الرديف هو البعير . وليس هذا الوصف خاصاً بالبعير ، وإنما هو من صفات الفرس أيضاً ، فالفرس يستنزل الراكب نفسه فضلا عن رديفه .

يقول امرؤ القيس فى ذلك :

يزِلُّ الغلامُ الخِفُّ عن صَهَواتِهِ ويُلْوِى بأَثواب العَنِيفِ المُثَقَّلِ[6]

ولذلك أرى أن المقصود هنا الحصان لا البعير ، يعين على هذا قوله : « مثل سرحان غابة وخاط » فالخيل هى التى تشبه بالسراحين دون الإبل ، وأن الذين يخرجون لشهود الصيد يركبون الخيل عادة لا الإبل ، كما أن البرقوقى جعل مكان ملعبة الجن عبارة « معلبة الجن » على معنى طريقها الموطأ المطروق ، ولأن تكون تلك الفلاة ملعباً للجن أجمل لفظاً ، وأبين لدواعى استهوالها وتخوفها ، وكذلك قال المتنبى حين وصف شِعب بَوَّان :

مَلاعبُ جِنَّةٍ لو سار فيها سليمانٌ لسارَ بِتَرْجُمَانِ

**الجواد**

ثم وصف الجواد بقوله :

---

( ١ ) البيت هكذا فى مخطوط مصر ٢٩ أدب م وفى مطبوع ليدن . وفى طبعة البرقوقى ص ٢٣٦ « معلبة الجن » أى طريقها الموطأ . الخرق : الفلاة الواسعة . أجزت : اجتزت وسلكت . إباطى : يلى إبطى .

( ٢ ) مستنزل الرديف : الرديف من يركب خلف غيره والمراد أنه يلقى بالرديف من نشاطه وسرعته . منيف : عال مرتفع . السرحان : الذئب . الوخاط : السريع .

( ٣ ) السديف : شحم السنام . المصدح : يريد حماراً كثير النهيق . نشاط : كثير النشاط والتحول من مكان إلى مكان .

( ٤ ) شرح هذه القصيدة ص ٤٠ من طبعته .

( ٥ ) ص ٢٣٦ من الطبعة التى أخرجها من الديوان .

( ٦ ) الخف : الخفيف . يلوى بأثوابه : يذهب بها .

فأتينا بسابحٍ يَعْبوبِ لم يُذَلَّلْ بِمِعْلَفٍ ورِبَاطِ (١)
غيرَ مَسْحٍ وحَشْكِ كُومٍ صَفَايا ومَرَافِيدَ فى الشتاءِ بِسَاطِ (٢)
فتَنادَوْا فأَلْجَموهُ وقالوا لغلام مُعَاوِدِ الإِعْتِبَـاطِ (٣)
سَكِّنَنْهُ واكْفُفْ إليك من الغَرْ بِ تجدْ مائحاً قليلَ السِّقاطِ (٤)
فتولى الغلامُ يَقْدَعُ مُهْرًا تَتِقَ الغَرْبِ مانعاً للسِّياطِ (٥)
وتَوَلَّيْن حينَ أَبصرنَ شخصاً مُدْمَجاً مَتْنُهُ كمتْنِ المِقَاطِ (٦)

**الصيد والصائد**

ووصف القانص فقال :

فَوقَهُ مُطْعِمُ الوحوشِ رفيقٌ عالمٌ كيف فَوْزَةُ الآباطِ (٧)
داجِنٌ بالطِّرَادِ يَرْمِى بطَرْفٍ فى فضاءٍ وفى صَحارٍ بِسَاطِ (٨)
ثم وَالى بسَمْحَجٍ ونَحُوصٍ وبعِلْجٍ يَكُفُّهُ بعِلاَطِ (٩)

ولم يشأ أن يختتم القصيدة دون أن يومئ إلى الفخر بنفسه حيث لا حاجة به إلى فخر ، فقال :

ثم رُحنا وما يَخافُ خليلِى من لسانى خيانةَ الإِنْبِساطِ

---

(١) اليعبوب : الفرس الطويل السريع السهل العدو .
(٢) غير مسح : يريد أنه لم يعود الرباط والتذليل بالتزام معلفه فلم يذلل إلا بمسح الأيدى . وحشك كوم : وشدة الدرة فى ضروع الكوم وهى الإبل الضخام الأسنمة . الصفايا : الغزار اللبن . مرافيد : تداوم الحلب وتملأ الرفد وهو القدح الضخم . بساط : متروكة لأولادها .
(٣) الاعتباط : نحر الذبيحة من غير داء . يريد أنه اعتاد قتل الوحوش .
(٤) الغرب : الحدة . مائحاً : معطياً والمراد يعطيه جرياً كثيراً .
(٥) يقدع : يكف . تتق الغرب : سريع الحدة والاندفاع .
(٦) مدمج المتن : مفتول الظهر والجسم . المقاط : حبل صغير شديد الفتل يكاد يقوم من شدة فتله .
(٧) فوزة الآباط : طعنة الآباط وهى حبال القلب أى عالم بالطعنة القاتلة .
(٨) داجن بالطراد : آلف للصيد متمرس به .
(٩) السمحج : الأتان الطويلة الظهر وكذلك الفرس ، والنحوص : من الأتن والبقر ما منعها السمن من الحمل . العلج : حمار الوحش . يكفه بعلاط : يمنعه من الجرى بطعن يكون كالعلامة فى عنقه . .

فهو وإن كان قد أحسن وصف ما تعرض له من مجلس اللهو والشراب عند صالح ابن علاط ومن الجواد والصائد ، فإنه لم يبلغ من وصف الجواد ما بلغه امرؤ القيس فى معلقته[١] . ولم يبلغ من وصف الصائد ما بلغه أوس بن حجر فى فائيته التى مطلعها :

تَنَكَّرَ بَعدِى من أُميمةَ صائفُ ... فبَرْكٌ فأَعْلَى تَوْلَبٍ فالمَخالِفُ

إذ يقول :

فَلاقَى عليه من صُبَاحَ مُدَمِّرًا ... لِنَامُوسِهِ من الصَّفيح سَقَائِفُ[٢]

صَد ، غائرُ العينين ، شَقَّقَ لَحْمَهُ ... سَمائِمُ قَيْظٍ ، فَهُو أسودُ شَاسِفُ[٣]

أَزبُّ ظُهورِ الساعدين ، عِظامُهُ ... على قَدَرٍ ، شَثْنُ البنانِ جُنَادِفُ[٤]

أَخو قُتُرَاتٍ ، قد تَيَقَّنَ أَنهُ ... إذا لم يُصِبْ لحماً من الوحشِ خَاسِفُ[٥]

مُعَاوِدُ تَأْكالِ القَنِيصِ ، شِوَاؤُهُ ... من اللحمِ قُصْرَى رِخْصَةٌ وطَفَاطِفُ[٦]

قَصِيُّ مَبِيتِ الليلِ ، لِلصَّيْدِ مُطْعَمٌ ... لأَسْهُمِهِ غَارٍ وبارٍ ورَاصِفُ[٧]

فيَسَّرَ سهماً راشه بمَنَاكِبٍ ... ظُهَارٍ لُؤَامٍ ، فهو أَعْجَفُ شارِفُ[٨]

فأَمْهَلَهُ حتى إذا ما كأَنهُ ... مُعَاطِى يَدٍ فى لُجَّةِ الماءِ غارِفُ[٩]

---

(١) شرح المعلقات للتبريزى ص ٤٠ وما بعدها .

(٢) صباح : اسم قبيلة . المدمر : يريد به الصائد . الناموس : بيت الصائد . الصفيح : حجارة عراض رقاق .

(٣) صد : عطشان . سمائم : جمع سموم وهى الريح الحارة تكون غالباً بالنهار . شاسف : يابس من الضمور والهزال .

(٤) أزب الساعدين : كثير شعرهما . شثن : غليظ . الجنادف : القصير المجتمع .

(٥) قترات : واحدها قترة ، وهى بيت الصائد . خاسف : هالك .

(٦) القصرى والقصيرى : ما يلى الحصر . رخصة : طرية لينة . الطفاطف : أطراف الأضلاع .

(٧) قصى مبيت الليل : ينفرد عن الحى ليلا طلباً للصيد . غار : يطلى بالغراء : بار : يبرى سهمه وينحته . راصف : يشد صدر السهم بالرصفة .

(٨) يسر سهما : أرسله . المناكب : ريشات أربع بعد القوادم . ظهار : ظاهرة . لؤام : ملتئمة متداخل بعضها فى بعض . أعجف : مهزول . شارف : هو من السهام العتيق القديم .

(٩) معنى البيت : فأمهله حتى إذا ما ورد كأنه معاطى يد . . . إلخ ففعل إذا متروك .

وأرسلهُ مُسْتَيقِنَ الظنِّ أنهُ مُخَالِطُ ماتحتَ الشَّراسِيفِ جائفُ[١]
فمَرَّ النَّضِيُّ للذراعِ ونَحْرِهِ ولِلْمَوْتِ أحياناً عن النَّفْسِ صارِفُ[٢]
فعضَّ بإبهامِ اليَمينِ ندامةً ولَهَّفَ سِرًّا أمَّهُ وهُو لا هِفُ[٣]

وعبر على الصيد نفسه عبوراً، فلم يذكر حمار الوحش إلا بقوله: « راعنا صوت مصدح نشاط » وقوله : « وتولين حين أبصرن شخصاً » مع أن للوحش فى هذا الموقف أحوالا وأوضاعاً وحركات وصوراً ، يحلو استجلاؤها ، ولا يتم جمال الصورة إلا بها ، فإن شئت أن ترى كيف يبدع الشاعر فى عرضها ، فاقرأ وصف أوس لحمار الوحش فى فائيته التى أشرنا إليها تجده يقول :

كأنى كَسَوْتُ الرَّحْلَ جَأْبًا مُكَدَّماً له بِجُنُوبِ الشَّيْطَيْنِ مَسَاوِفُ[٤]
يُصَرِّفُ حَقْباءَ العَجِيزةِ سَمْحَجاً بها نَدَبٌ من زَرِّهِ ومَنَاسِفُ[٥]
وحلَّأها حتى إذا هى أَحْنَقَتْ وأَشْرَفَ فَوْقَ الحالِبَيْنِ الشَّرَاسِفُ[٦]
فأَضْحَى بِقَارَاتِ السِّتَارِ ، كأنه رَبِيئَةُ جَيْشٍ ، فهو ظَمآنُ خلفُ[٧]
يقولُ له الرَّاءُونَ : هذاك راكبٌ يُؤَبَّنُ شخصاً فوق عَلياءَ واقفُ[٨]
إذا استَقْبلَتْهُ الشمسُ صَدَّ بِوَجْهِهِ كما صَدَّ عن نارِ المُهَوِّلِ حالِفُ[٩]

(١) الشراسيف : جمع شرسوف ، وهو طرف الضلع . جائف : بالغ الجوف .
(٢) النضى : السهم قبل أن يراش . أى أن السهم لم يصبه ومر بجانبه .
(٣) لهف أمه : قال واهفا أمى ، ندامة على إفلات الصيد ، وذلك فى سره حتى لا تسمعه بقية الوحش فتنفر .
(٤) الجأب : الغليظ من الحمر . المكدم : المعضض من الكدم وهو العض . الشيطان : اسم موضع . المساوف : مواضع أبوال الحمر . والسوف : هو الشم . واحدة المساوف مسأف . ومنه قيل لغاية الطريق مسافة لأن الدليل كان يشم ترابها . وروى هذا البيت : كأنى كسوت الرحل أحقب قارحاً .
(٥) الحقباء : البيضاء . السمج : الطويلة . الندب : أثر الجرح . الزر : الضرب . مناسف : جمع منسف وهو أثر العض .
(٦) حلأها : منعها . أحنقت : هزلت . الشراسف : أطراف الضلوع .
(٧) قارات : جمع قارة ، وهى جبيل صغير . الستار : جبل . الربيئة : الطليعة .
(٨) يؤبن شخصاً : المراد ينظر ويتبين .
(٩) المهول : المحلف . وكانوا إذا أرادوا استحلاف شخص أوقدوا ناراً وألقوا فيها ملحاً خفية ، يهولون بذلك على الحالف .

تَذَكَّرَ عَيناً من غُمَازَةَ ماؤُها  له حَبَبٌ تَسْتنُّ فيه الزَّخارفُ[١]
فأَوْرَدَها التَّقْريبُ والشَّدُّ مَنْهَلاً  قَطَاهُ مُعِيدٌ كَرَّةَ الوِرْدِ عاطِفُ[٢]

وأول ما يبادر القارئ لقصيدة حسان قوافيها الواردة على حرف الطاء، وهى نادرة المجيء فى الشعر ، ولهذا لم يستطع حسان أن يتحامى الوقوع فى كلمات لا تخف على الأذن ، ولعل الذى ألجأه إلى هذه القافية رغبته فى ذكر اسم صديقه صالح ابن علاط ، فوقع فى مثل قوله « بُواط » و « الغِطاط » وقوله :

تلك دارُ الأُلوفِ أَضحتْ خلاءً  بعدما قد تَحُلُّها فى نَشاطِ

إذ النشاط فى هذا الموضع لا معنى له ولا داعى إليه ، فحلول المحبوبة بالدار إن اقترن بالكسل أو بالنشاط لا يغير شيئاً من أساه على رحيلها عنها ، وليس ذلك مما يبيح للشاعر أن يجعل هذه الكلمة قافية ، ومثلها قوله « سمعة الإختلاط » فهى رذلة غير مفهومة . « ومعى صارم الحديد إباطى » فهى قبيحة ، وكذلك « وخاط ونشاط ، ومتن المقاط ، وفوزة الآباط، وسمحج . ونحوص » و « علج يكفه بعلاط »

وقد اضطرته القافية إلى قطع همزة الوصل فى ثلاثة مواضع « الإنبساط » و « الإعتباط » و « الإختلاط » ، ولا عذر لحسان فى قوله « وحشك كوم » مهما كان مراده منها .

ونحب أن نختم الكلام فى وصف حسان بما وصف به ديار غسان ، تلك الديار التى كان لها أكبر الأثر فى سعة خيال الشاعر ، ودقة وصفه ، وجمال تصويره . قال[٣] :

أَجِدَّكَ لم تَهْتَجْ لِرَسمِ المنازل  ودارِ ملوكٍ فوقَ ذاتِ السَّلاسِلِ[٤]

(١) غمازة : عين ماء لبنى تميم . الحبب والحباب : معظم الماء أو طرائقه أو فقاقيعه . تستن : تضطرب .
(٢) التقريب والشد : نوعان من السير . والمراد : أن المنهل لغزارة مائه رحيبه لا تنقطع الطير عن وروده .
(٣) الديوان رقم ٨٧ .
(٤) أجدك : أى أجد هذا منك ؟ أو أنه يستحلفه بجده وحقيقته . ذات السلاسل : موضع بالشام.

تَجُودُ الثُّرَيَّا فوقَها ، وتَضَمَّنَتْ لها بَرَدًا يذْرِى أُصولَ الأَسافلِ[١]
إذا عَذِراتُ الحَىِّ كان نِتاجُها كُروماً تَدَلَّى فوقَ أَعْرفَ مائلِ[٢]
ديارٌ زَهَاها اللهُ ، لم يَعْتَلِجْ بهـا رِعاءُ الشَّوِىِّ من وراءِ السوائلِ[٣]

## المدح

### حسان ليس بالشاعر المداح

المدح أن توجه إلى الممدوح من صفات الخير ما يكون له وفيه ، وما يليق به[٤] . ويكاد الناس يعرفون من حسان أنه شاعر مداح ، وأن أكثر شعره مدح ، حتى بعض أهل الأدب أنفسهم ، فقد جاء فى الوسيط عنه : « وكان يمدح الملوك والمناذرة والغساسنة فى الجاهلية ، ويرحل إليهم فينال منهم جزيل العطايا ، وأكثر من كان يمدحهم ويكثر انتجاعهم آل جفنة من ملوك غسان »[٥] .

ثم يقول : « ويغلب على شعره بعد المدح والهجاء الفخر بنفسه »[٦] .

وهذا القول يوهم أمرين : أولهما أن المدح كان له من شعر حسان أوفى نصيب ، والآخر أنه كان يتكسب بهذا المدح لدى ممدوحيه . وليس الأمر كذلك .

### قلة شعره فى المدح

أما بالنسبة للأول فلأنك لو تتبعت شعر حسان الجاهلى كله لوجدت المدح أقل الفنون منه حظًّا بعد الرثاء ، إذ لا يبلغ عشرين بيتاً موزعة بين ممدوحيه جميعاً ، كثير منها لم يقصد فيه إلى المدح قصداً ، وإنما جاء ذكر الممدوح فيه عابراً فى ثنايا فخر الشاعر بنفسه وقومه ، أو الرثاء لعزيز فقده ، فهو فى فخره وهجائه قيس

---

( ١ ) الثريا : نجم . يريد أن يقول إنها تمطر بنوء الثريا . تضمنت بردا : أى أن مطرها حمل معه برداً . يذرى : يكسر . أصول الأسافل : الأسافل الأودية . ولعله يريد بأصول الأسافل شجرها .

( ٢ ) عذرات : جمع عذرة وهى الفناء والساحة . الأعرف : ما له عرف ، والعرف ظهر الرملة المشرف .

( ٣ ) زهاها الله : جملها وزينها . يعتلج : يزدحم ويتضارب . رعاء الشوى : الرعاء جمع راع ، الشوى جمع شاة . السوائل له يقصد مسايل الماء .

( ٤ ) انظر نقد الشعر ص ٣٨ .

( ٥ ) الوسيط ص ١٥٩ .

( ٦ ) الوسيط ص ١٦٠ .

ابن الخطيم يوم السرارة بقصيدته التى مطلعها[١] :

لَعَمْرُ أَبيكِ الخيرَ يا شَعْثَ مانَبَـا  علىَّ لسانى فى الخُطوبِ ولا يَدِى

يذكر إزجاءه للمطى ، وإجهاده للراحلة ، التى يكلفها أن تدلج الليل كله ، تروح إلى باب النعمان بن المنذر وتغتدى ، ولم يجد مندوحة عندئذ من أن يذكر النعمان أيضاً بكلمة ثناء ، فاكتفى من ذلك بقوله :

وأَلْفَيْتُهُ بحرًا كثيرًا فُضولُهُ[٢]  جوادًا متى يُذْكَرْ له الخَيْرُ يَزْدَدِ

ولم يزد على هذا البيت ، ولم يذكر المناذرة بعد ذلك فى جاهليته .

ثم يمدح خاله الذى دعاه قيساً ببيت واحد آخر فى معرض الفخر ، وارتضائه إياه حكماً بينه وبين خصم له ، فيقول عنه[٣] :

له كَفٌّ تَفِيضُ دَماً ، وكَفٌّ  يُبارِى جودُها سحَّ الشَّمال

ويمدح بنى عبد الدار من قريش بهذه الأبيات[٤] :

كانت قريشٌ بَيْضةً فَتَفَلَّقَتْ  فالمُخُّ خالِصُهُ لعَبدِ الدار[٥]

ومَناةُ ربِّى خَصَّهمْ بكرامةٍ  حُجَّابُ بَيْتِ اللهِ ذى الأَستار[٦]

أَهلُ المَكارمِ والعلاءِ ونَدْوةِ النادى  وأَهـلُ لَطِيمَةِ الجَبَّـارِ

ولِوَا قريشٍ فى المَشَاهدِ كُلِّها  وبنجـدةٍ عندَ القَنا الخَطَّارِ[٧]

ويبكى الحارث الجفنى ، الذى قيل إنه قتل فى حرب له مع المناذرة ، فيجره ذلك إلى ذم رجاله وأصحابه من غير غسان إذ خذلوه وأسلموه ، وإلى الإشادة بأمثالهم

---

(١) الديوان رقم ٢ .

(٢) الفضول جمع فضل .

(٣) الديوان رقم ٢٢٣ .

(٤) الديوان رقم ١٤٥ .

(٥) المخ : خالص كل شىء وفى رواية المح والمعنى واحد .

(٦) مناة : صنم كان الأوس والخزرج أشد الناس إعظاماً له فى الجاهلية .

(٧) كانت حجابة البيت الحرام ودار الندوة ولواء قريش فى الجاهلية بين بنى عبد الدار . اللطيمة : العير التى تحمل المسك .

من غسان ومدحهم بقوله[١] :

من جِذْمِ غسَّانَ ، مُسْتَرْخٍ حَمائلُهُمْ  لا يُغْبَقون من المِعْزَى إذا آبُوا[٢]
ولا يُذادون مُحْمَرًّا عيونُهُمْ  إذا تُحُضِّرَ عند الماجدِ البابُ[٣]
كانوا إذا حضروا شِيبَ العُقَارُ لهم  وطِيفَ فيهم بأَكْواسٍ وأَكواب[٤]

ولكننا نراه فى هذه المرة يفد على عمرو بن الحارث الغسانى ، وعنده النابغة الذبيانى وعلقمة بن عبدة ، فينشده قصيدته المشهورة التى يمدح فيها الجفنيين ، ويفخر بنفسه ونسبه . ومطلعها[٥] :

أسأَلتَ رسمَ الدارِ أَم لم تَسْأَلِ  بين الجَوَابِى فالبُضَيْعِ فحَوْملِ

ولعل اشتهار حسان بهذه القصيدة ، وما كان لها من أثر فى نفس عمرو ، ارتفع به إلى مزاحمة الشاعرين الفحلين ، مع جودتها وما أثاره النقاد حول بعض أبياتها ، هو الذى أطار شهرته بالمدح ، وجعل الناس يتخيلونه شاعراً مداحاً .

**حسان لم يتكسب بالمدح**

وأما بالنسبة للأمر الآخر ، وما يتوهمه بعضهم من أن حسان كان يتكسب بمدحه فليس بحق ، لأن تلك الأبيات القليلة المتناثرة لا يمكن أن تكون بضاعة شاعر مداح ، ولا تصلح أن تكون كذلك بمادتها وملابساتها وبالممدوحين أنفسهم ، فالبيت الذى قاله فى النعمان ذكرٌ بالغيب ، لم يواجه به ذلك الملك ، بل لعله لم يصل إليه ، ولعله إن واجهه به لم يكن ليستحق عليه الصلة ، فما بمثل هذا الفرد اليتيم يمدح النعمان ، وليس لمثله أن يهتز له وعنده من انقطع لمدحه من فحول الشعراء المجودين ، وإذا كان حسان قد مدح النعمان فى وفادته عليه بشعر آخر لم يحفظه الزمن ، فإننا لا نستطيع أن نحكم على ذلك الشعر المزعوم ، ولا أن نتبين منه موقف حسان ، أكان متملقاً مستمنحاً ، أم كان على عهده أبى النفس متعالياً

---

(١) الديوان رقم ٩٢ .
(٢) جلم : أصل . يغبقون : يشربون ليلا .
(٣) يذادون : يمنعون ويطردون . تحضر الباب : اجتمع عليه الناس .
(٤) شيب : خلط . العقار : الخمر .
(٥) الديوان رقم ١٣ .

فى مدحه . وكل الذى وعته المراجع الأدبية عن علاقة حسان بالمناذرة أنه وفد على النعمان بن المنذر مرة واحدة فأنشده شعره . وجالسه إلى طعامه وشرابه ، ونال منه جائزة سنية[1] . وليست وفادة واحدة على ملك عظيم بدليل على الاستمناح والاستجداء ، وليست جوائز الملوك بعار على المجازين ، فقد كانت تلك سنة ، لا يتخلف عن بذلها ملك ، ولا يتردد فى قبولها شاعر ، يسخو بها الملوك ، ويزهى بها الشعراء ، لما تحمل من معانى التطول والرضا والتقدير .

وبيته فى مدح خاله ، وأبياته فى مدح بنى عبد الدار ، وفى مدح من كان يرجو أن يصحبوا الحارث الجفنى من الغسانيين فى الحرب ، فيذودوا عنه ولا يسلموه ، هذه الأبيات غير صالحة بمادتها وملابساتها والممدوحين فيها لأن تكون أداة تكسب كما ذكرنا . فهو لا يستجدى خاله . ولم يقصد إلى بنى عبد الدار ولا إلى أولئك الغسانيين فى ديارهم يحمل هذا الثناء ، فضلا عن أنه مدح عام يلحق كل عبدرى . وكل غسانى ، لم يوجه إلى ملك أو أمير أو عظيم ابتغاء رفده ، وطلباً لمعروفه ، ولا إلى جهة بذاتها يستطيع أن يتقاضاها ثمن ذلك الثناء الجميل إذا أراد .

## منهجه فى المدح

بقيت بعد هذا قصيدته المشهورة فى مدح الجفنيين أبناء غسان . والعجيب أن حسان قسم هذه القصيدة بينه وبين الغساسنة فجار فى القسمة . وخص نفسه ونسبه بأوفر مما خص به ممدوحيه ، إذ مدحهم فى عشرة أبيات وفخر فى خمسة عشر بيتاً .

وتلك كانت عادة حسان فى مزجه بين الفخر والأغراض الأخرى وإقحامه عليها ، والتى تحدثنا عنها فيما تقدم من هذا الفصل ، وأرجعناها إلى طبيعته وبيئته ، وشدة اعتزازه بنسبه العريق ، ومآثر آبائه ، وجاهه عند الملوك ، فلم يكن حسان لينسى نفسه ونسبه حين يسير إلى الغساسنة ، فقد كان يتوجه إليهم مزوداً بهذا الزاد العتيد ، وكان ملوكهم وأمراؤهم يعرفون له نسبه فيهم ، ويحفظون حق قرابته عليهم ، ويرقبون قدومه إليهم ، لهذا وذاك لم يكن يمدحهم على عادة المادحين أفراداً ، فكلهم منه بمنزلة القرابة والأهل ، يزورهم بهذه الصفة ويبادمهم ، فكان لهذا يمدحهم

---

(١) انظر ص ١٥٢ .

جملة ، ويفخر بهم أسرة ، ولا يصرح باسم ممدوحه منهم .

وما كان ينبغى لشاعر أن يفد على ملك عظيم مادحاً فيزحم ثناءه عليه بفخره بنفسه ، فذلك منه جهل بمقتضى الحال ، والطبع السليم لا يستسيغه ، والملوك لا تتسامح فيه . لكن حسان كان يرى فخره فى هذا المجال فخراً بالنسب المشترك بينه وبين ممدوحيه ، ونوعاً من تأكيد الثناء عليهم حين يزهى بالانتساب إليهم ، كما كانت قرابته لهم تدنى مديحه إياهم من الفخر بهم[١] .

فهو إذاً لم يكن يتكسب بشعره فيهم ، أو يسعى إليهم مستمنحاً مسترفداً ، ولكنه كان يرجو من ورائه المجد الذى يجدد صلته بهؤلاء الملوك من قومه ، ويدنيه منهم ، ويجعله شاعر بلاطهم[٢] ، وليس ذلك بمانع له من أن يتطلع إلى جوائزهم ، ويسر بعطاياهم ، آية رضاً ودليل تقدير وحجة تبريز ، يكاثر بها غيره من الشعراء .

وليس أدل على أن حسان لم يطلب المال بشعره فى الغساسنة من رفضه ما عرضه عليه عمرو بن الحارث من العدول عن إنشاد قصيدته مع وصله بجائزة سنية ، حين أشفق عليه من الإنشاد بحضرة شاعرين فحلين هما النابغة وعلقمة . وليس أدل على ما كان بين حسان والغسانيين من عاطفة القربى ورعاية أواصر النسب من أنهم ظلوا يوالونه بهداياهم وعطاياهم دهراً طويلا ، وقد انقطع وانقطع شعره عنهم ، وضرب الإسلام بينه وبينهم حجاباً . وأوصد أبواباً .

### قصيدته فى الجفنيين جاهلية

ونعود لعرض مدحه فى هذه القصيدة ، التى يراها الدكتور محمد حسين إسلامية[٣] ، وإنما هى جاهلية كما قدمنا[٤] . وإذا كان إسكندر أغا أبكاريوس قد ذكر أن حسان فى آخر عمره قصد جبلة بن الأيهم ومدحه بقصيدته هذه فأجازه وأحسن إليه[٥] ، ويترتب على هذا أن حسان قالها بعد إسلامه — فذلك سهو منه ،

---

(١) انظر ص ١٤٤ وما بعدها من هذا الكتاب .

(٢) انظر ص ١٤٤ وما بعدها من هذا الكتاب .

(٣) انظر كتابه « الهجاء والهجاءون » ص ٢٢٧ .

(٤) انظر ص ١٤٦ وما بعدها. والأغانى ١٤ / ٣ وما بعدها ، تاريخ دمشق ٤ / ١٣٤ دائرة المعارف الإسلامية المجلد السابع ص ٣٧٥ . بلوغ الأرب ٣ / ١٣٥ .

(٥) روضة الأدب ١٢٤ .

لأن الروايات متفقة على أن حسان أنشد هذه القصيدة والنابغة وعلقمة حاضران ، ومعروف أن النابغة لم يدرك الإسلام ، أما أنها قيلت فى مدح جبلة فهو أمر يعوزه الدليل ، والمعروف غيره على ما أسلفنا ، قال حسان :

أَسأَلْتَ رسمَ الدار أَم لم تَسأَلِ ... بين الجَوابى فالبُضَيْعِ فحَوْمَلِ[1]

فالمَرْجِ مرجِ الصُّفَّرَينِ فجاسِمٍ ... فديارِ سَلمى دُرَّسًا لمْ تُحْلَلِ[2]

دِمَنٌ تَعاقَبَها الرياحُ دَوَارِسٌ ... والمُدْجِناتُ من السِّماكِ الأَعْزَلِ[3]

دارٌ لقومٍ قد أَراهم مـــرةً ... فوقَ الأَعزةِ ، عِزُّهم لم يُنْقَلِ[4]

لِلّهِ درُّ عصابةٍ نادمْتُهُمْ ... يوماً بجِلَّقَ فى الزمانِ الأَوَّلِ[5]

يَمْشونَ فى الحُلَلِ المُضاعَفِ نَسجُها ... مَشْيَ الجمالِ إلى الجمالِ البُزَّلِ[6]

الضاربون الكبشَ يَبْرُقُ بَيْضُهُ ... ضرباً يَطِيحُ له بنَانُ المَفْصِلِ[7]

والخالطون فقيرَهمُ بغَنيِّهم ... والمنعِمون على الضعيفِ المُرْمِلِ[8]

أَولادُ جَفْنَةَ حولَ قبرِ أَبيهُمُ ... قبرِ ابنِ ماريةَ الكريمِ المُفْضِلِ[9]

---

(١) الجوابى لعله يريد جابية الجولان قرب دمشق – والبضيع جبل بالشام أسود. حومل : موضع.

(٢) مرج الصفر على أربعة فراسخ من دمشق – جاسم قرية بينها وبين دمشق ثمانية فراسخ . درسا : بالية .

(٣) هذا البيت فى مخطوط مصر ٢٩ أدب م وليس بمطبوع ليدن . المدجنات : السحب الممطرة . السماك الأعزل من نجوم السماء ومن منازل القمر .

(٤) عزهم لم ينقل : أى هو ثابت فيهم لم يتحول إلى غيرهم .

(٥) العصابة : الجماعة . جلق : قيل هى دمشق وقيل موضع بقربها .

(٦) يمشون إلى أقرانهم فى حلل مضاعفة النسيج مشى الجمال المكتملة القوى إلى أمثالها . البازل من الإبل ما بلغ التاسعة .

(٧) الكبش : رئيس القوم وقائدهم . البيض : جمع بيضة وهى خوذة الحديد .

(٨) المرمل : الفقير .

(٩) ابن مارية هو الحارث الثانى بن جبلة بن الحارث بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة بن عمرو بن عامر وهو المعروف عند مؤرخى العرب بالحارث الأعرج ، كما أنه يعرف بالحارث الأكبر وبالحارث بن أبى شمر حكم ( ٥٢٩ – ٥٦٩ ) ، وكان معاصراً للمنذر الخيرى ، وأمه مارية بنت الأرقم بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة ابن عمرو بن عامر فهى غسانية . ابن الكلبى وأبو عبيدة وابن السكيت ، ونقله نولدكه فى أمراء غسان ص٦٧. المفضل : ذو الفضل والإحسان . ومراده بقوله « حول قبر أبيهم » أنهم فى عز ومنعة لا يخشون غيرهم لذلك لم يتحولوا عن ديارهم ، وأنهم فى خصب وسعة وقرار لا يتحولون طلباً للنجعة .

يُغْشَوْنَ حتى ما تَهِرُّ كلابُهم لا يسْأَلونَ عن السَّوَادِ المُقْبِلِ[١]
يَسْقُونَ من وَرَدَ البريصَ عليهم بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرحيقِ السَّلْسلِ[٢]
يُسْقَوْنَ دِرْياقَ الرحيقِ ولم تَكُنْ تُدْعَى ولائدُهُمْ لِنَقْفِ الحَنْظَلِ[٣]
بيضُ الوجوهِ كريمةٌ أحسابُهُمْ شُمُّ الأُنوف من الطِّرازِ الأَولِ[٤]

**نقد وموازنة**

وقد أجاد حسان فى هذا المدح ، إذ مدحهم بخير ما تمدح به الملوك وما تتميز به عن غيرها من الناس[٥] ، حتى قال عنه ابن سلام الجمحى : « إنه من شعر حسان الرائع الجيد » . وقالوا إن الحطيئة لما حضرته الوفاة قال : أبلغوا الأنصار أن أخاهم أشعر الناس حيث يقول :

يُغْشَوْنَ حتى ما تَهِرُّ كلابُهم لا يَسأَلون عن السَّوَادِ المُقْبِلِ[٦]

وقال عبد الملك بن مروان : « إن أمدح بيت قالته العرب بيت حسان هذا »[٧] . وقد دعاهم استحسانه إلى أن يعقدوا الموازنة بينه وبين نظائره من قول الأعشى وزهير

---

( ١ ) يغشون : منازلهم مطروقة يكثر غشيان الناس لها حتى ألفت ذلك كلابهم فلا تهر إلى أحد . لا يسألون عن السواد المقبل : السواد الجمع الكثير والشخص : يريد أنهم فى سعة وجود لا يبالون بمن ينزل بهم من جمع كثير ، أو أنهم لا يوحشون الطارق بسؤاله عن نسبه ولو كان من أعدائهم لكرمهم العميم .

( ٢ ) البريص : موضع وقيل قصر بدمشق . بردى : نهر بدمشق والمراد ماؤه . يصفق : يمزج . الرحيق السلسل : الخمر السائغة السهلة الشرب .

( ٣ ) درياق الرحيق : أى الخمر الشافية من الهموم . الوليدة : الجارية الصغيرة : نقف الحنظل كسره لاستخراج ما فيه ، لا تكلف جواريهم ذلك لأنه ليس من طعامهم ولأنهم ليسوا بأعراب .

( ٤ ) بيض الوجوه : كناية عن نقاء أعراضهم وجميل فعالهم وأخلاقهم ، فليس عندهم من ذلك ما تسود منه الوجوه ، كما يقال بيض فلان وجهى بكذا ، كما يراد بها أنهم وضاحون مشهورون . شم الأنوف : يصلح أن يكون مراده الشمم الحقيقى من طول الأنف واستوائه وارتفاع أرنبته لصلاح ذلك دليلا على النجابة والعتق ، وأحسن منه أن يكون كناية عن التنزه والتباعد عن الدنايا ، وخص الأنوف بذلك لأن الحمية والأنفة والغضب تكون منها . الطراز الأول : أى أنهم على سنن أوائلهم وآبائهم فى اصطناع ما يليق بهم .

( ٥ ) طبقات الشعراء ص ٨٥ .

( ٦ ) العمدة ٢/١١٠ .

( ٧ ) الاستيعاب ص ١٣٠ .

والنابغة وأبى الطِّمِحَّان القَيْنى وجرير والأخطل ، ففضله بعضهم ، وفضل غيره عليه بعضهم[١] .

ولكن حماداً يعيب هذا البيت . قال الأصمعى : سمعت حماداً الراوية وأنشد رجل بيت حسان :

يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

فقال : ما يعرف هذا إلا فى كلاب الحانات[٢] .

وحماد ليس على حق فى هذا ، فإنما تهر الكلاب التى لم تتعود رؤية الطُّراق ، فإذا ألفت ذلك أنست بهم وسكنت إليهم ، وقد كان العرب يتفاخرون بكثرة الطراق ، وسهولة الفناء ، وأدب الخدام . وفى هذا المعنى يقول حاتم الطائى :

فإن كلابى قد أُقِرَّتْ وعُوِّدَتْ قليلٌ على من يَعْتَرِينِى هَرِيرُها[٣]

ولكن بيت حسان أوفى معنى وأعمق مدحاً وأجمل لفظاً ، لأن كلابه لا تهر مطلقاً ، وكلاب حاتم يقل هريرها ، وفى التعبير بكلمتى : « يغشون وحتى » مجال فسيح لتعميم الغشيان واستمراره تقصر عنه عبارة « من يعترينى » ، وقد استغرق حسان فى شطر بيته الأول معنى بيت حاتم كله ، وزاد عليه معنى جديداً بشطره الآخر .

## سبيل مدح الملوك

وحسان وإن كان قد مدح ملوك جفنة بالجود والقرى ، الذى يتمادح به سائر العرب ، فقد زادهم رتبة عُرف بها أنهم ملوك فى قوله :

يسْقُون مَن ورد البَرِيصَ عليهم بَرَدَى يُصَفَّقُ بالرحيقِ السَّلْسل

وهذا سبيل مدح الملوك ، فلا يليق أن يمدح الملك ببعض ما يتجه فى غيره من الرؤساء وإن كان فضيلة ، ولذلك أنكروا على البحترى قوله فى مدح المعتز بالله :

لا العَذْلُ يرْدَعُه . ولا التَّ عنيفُ عن كَرمٍ يَصُدُّهْ

---

(١) انظر العمدة ٢/١١٠ و ١١١ .

(٢) العقد الفريد ٦/١٧٨ .

(٣) تاريخ دمشق ٤/١٣٦ . . يعترينى : يأتينى .

وقالوا: من ذا يعنف الخليفة على الكرم أو يصده ! هذا بالهجاء أولى منه بالمدح[١] .
وعيب على الأخطل قوله فى عبد الملك بن مروان :

وقد جعل اللهُ الخلافةَ منهمُ لأَبيضَ لا عارِى الخِوَانِ ولا جَدْب

وقالوا: لو مدح بها حَرَسِيًّا لعبد الملك لكان قد قصَّر به[٢] .

وقد جمع فى بيته الآخر ألطف الكنايات عن عراقة الأنساب ، وكرم الأحساب ، ومآثر الآباء ، والأنفة والإباء ، ونقاء الأعراض ، وجمال الأخلاق ، وحسن الفعال بقوله :

بيضُ الوجوه ، كريمةٌ أحسابُهمْ شُمُّ الأَنوفِ ، من الطِّراز الأَوَّلِ

## الرثاء

### حسان لم يرث أحداً من قبيلته

وعجيب ألا ترى لحسان فى جاهليته رثاء لأحد من قومه وقبيلته ، مع أن لذعة الحزن على الميت شىء لا يستطاع تحاميه ، وقد كانت حياة حسان الجاهلية مسرحاً خصيباً لفخره بقومه ، ودفاعه عنهم ، ومناهضته لأعدائهم ! أفما أصابته اللوعة لفقد أحد ممن حملوا ألوية المجد والسيادة والحرب فيهم ؟ أفما كان له فى الذاهبين حميم ؟ أفلم يمتحن فى عمره الجاهلى الطويل بموت عزيز من عشيرته الأقربين ؟ وإذا كان شىء من هذا لم يحرك فى قلبه أوتار الحزن والأسى — وذلك جد بعيد — فيرسل الدمعة المسكوبة والزفرة الحرى قصيدة رائعة ، يحفظها الزمن وترويها الرواة ، أفما كان جديراً به وهو شاعر قومه ، المذيع لمفاخرهم ، الذائد عن حياضهم ، الناطق بلسانهم ، المسجل للأحداث الدائرة فيهم ، الحافظ لتاريخهم — أن يؤدى واجبه فى رثاء قادتهم وسادتهم ؟

---

(١) العمدة ٢/١٠٣ .
(٢) العمدة ٢ / ١٠٣ .

**محاولة تعليل ذلك**

فإذا قلنا : إنه لم يقل فى رثائهم شعراً قط كان ذلك أشبه بمخالفة السنن الكونية ، وإنكار الأمور البديهية . وإذا قلنا : إنه قال فيهم شعراً فعبثت به يد الضياع ، عدنا نتساءل أيكون ذلك من قبيل المصادفات العجيبة ؟ وهل يكون من الصدف أن يضيع شعره فى رثاء قومه وحده . . ! وأن يضيع هذا الشعر كله جملة ؟ ! أم أن يداً قد عدت عليه عامدة ؟ فلِمَ لم تَعْدُ على شعره الكثير فى الفخر . . ؟ وهل يبلغ الرثاء من تسجيل المآثر وكيد الأعداء ما يبلغ الفخر العريض ، حتى يستثير حفيظتهم ويحملهم على وأده ؟ ! ثم ألم يكن فى قوم حسان من حفظ شيئاً من ذلك الرثاء . . ؟ وأية قوة تلك التى تستطيع أن تتسلط على ما فى الصدور فتمحوه ! !

قد يقال إن حسان لم ينبغ فى الرثاء ، وكذلك الشعراء قد ينبغ أحدهم فى بعض الفنون دون بعض ؛ فالفرزدق على فحولته لم يكن غزلا ، وقد عجز عن رثاء زوجه حتى ندبت بأبيات لجرير فى زوجه ، والبحترى لم يكن ليحسن الهجاء ، وكان حافظ إبراهيم لا يحسن الغزل ، ولكن عدم نبوغ الشاعر فى بعض الفنون شىء ، وعدم إنشائه الشعر فى فن تحوج إليه الطبيعة كالرثاء شىء آخر .

الحق أننا لم نظفر بتعليل لهذه الظاهرة الغريبة فى شعر حسان . ، ولم نجد جواباً شافياً عن هذه الأسئلة الحائرة ، فلعل الباحثين أن يهتدوا إلى سرها ، ولعل الزمن أن يتولى الإجابة عنها .

وقد جاء فى مخطوط المتحف البريطانى ، ونقل عنه مطبوع ليدن ، كما جاء فى النسخ الأخرى من الديوان ، أن حسان قد رثى الحارث الجفنى بالقطعة التى أشير إليها فى الكلام على المدح . ومطلعها[1] :

إنى حلفتُ يميناً غيرَ كاذبةٍ  لو كان للحارث الجَفْنِيِّ أَصحابُ

ومع التسليم بأنها قيلت فى تلك المناسبة فإنك لن ترى فيها كلمة واحدة يصح أن تسمى رثاء . وكل ما فيها تعريض برجال الحارث الجفنى من غير غسان وذم لهم ، ومدح لبنى غسان .

---

(١) الديوان رقم ٩٢ .

## بكاؤه دولة غسان

ولن تجد بعد هذا ما يمكن أن يسمى رثاء فى شعره الجاهلى إلا بكاءه دولة غسان الدائلة، فى شخصى عمرو بن الحارث الأصغر، وحُجر بن النعمان بن الحارث الأصغر ، ومع ما ستراه فى رثائه من صدق العاطفة وشدة الحسرة ، فإنه لم يتخل عن طبيعته الفخور الغزلة ، فذكر إلى جانب الرثاء عمرة التى انبتت حبال وصلها ، وفخر بأخواله، ثم خلط نفسه بآل غسان ، فتكلم بلسانهم، وفخر بمآثرهم، معللا ذلك بأنه منهم ، قائلا[١] :

منهمُ أَصْلِى فمن يفخرْ بهِ ... يَعْرِفِ الناسُ لِفخر المفتخِرْ[٢]
نحن أهلُ العزِّ والمجدِ معاً ... غيرُ أَنْكاسٍ ولا مِيلٍ عُسُرْ[٣]
فسلُوا عنا وعن أَفعالنـــا ... كلُّ قومٍ عندَهم علمُ الخَبرْ

وذلك من قصيدته التى مطلعها :

أَجْمَعَتْ عَمْرَةُ صَرْماً فابْتَكِرْ ... إنما يُدْهِنُ للقلبِ الحَصِرْ[٤]

والتى يقول فيها :

ربّ خالٍ لىَ لو أَبصرتِهِ ... سَبِطِ المِشْيَةِ فى اليوم الخَصِرْ[٥]
عندَ هذا البابِ إذْ ساكِنُهُ ... كلُّ وجهٍ حَسَنِ النُّقْبَةِ حُرّ[٦]
يُوقِدُ النار إذا ما أُطْفِئَتْ ... يُعْمِلُ القِدْرَ بأَثْباجِ الجُزُرْ[٧]

---

(١) الديوان رقم ١٥٥ .
(٢) يعرف الناس : يعترفون ويقرون .
(٣) أنكاس : جمع نكس وهو الضعيف والمقصر عن غاية النجدة والكرم . الميل : جمع أميل وهو الجبان والخائر الذى لا يحسن الركوب . عسر : جمع أعسر وهو الذى يعمل بيسراه فتكون أضعف .
(٤) الصرم : الهجر . ابتكر : عجل وبادر . يدهن للقلب : يصانع ويظهر خلاف ما يبطن القلب ، فاللام زائدة . الحصر : الضائق بما فيه .
(٥) سبط المشية : حسن المشية . الخصر : البارد .
(٦) النقبة : اللون وقيل ما أحاط بالوجه من دوائره .
(٧) الأثباج : جمع ثبج ، وهو ما استدار على الكاهل إلى الصدر . الجزر : جمع جزور وهو المجزور من الإبل ، والمراد أطايب الجزر .

من يَغُرُّ الدهرُ أو يأْمَنُهُ ... من قَبيلٍ بعد عَمروٍ وحُجُرْ
ملَكا من جبلِ الثلجِ إلى ... جانبَىْ أَيْلَةَ من عبدٍ وحُرْ[1]
ثم كانا خيرَ من نال النَّدَى ... سبقا الناسَ بإقساطٍ وبِرّ[2]
فارسىْ خيلٍ إذا ما أَمسَكَتْ ... ربةُ الخِدْرِ بأَطراف السُّتُرْ[3]
أَتيا فارس فى دراهمُ ... فتناهَوْا بعد إعصامٍ بِقُرّ[4]
ثم صاحا بين غسانَ اصبِروا ... إنه يومُ مَصَاليتٍ صُبُرْ[5]
اجعلوا معْقِلَها أَيْمانَكمْ ... بالصَّفِيحِ المصطَفَى غيرِ الفُطُرْ[6]
بضِرابٍ تَأْذَنُ الجنُّ لهُ ... وطعانٍ مثلِ أَفواهِ الفُقُرْ[7]

فما أشبه هذا الرثاء الجامع بذلك المدح الشامل لآل غسان، وما أحفله بألوان المآثر والمحامد . اللائقة بما كان لأولئك الملوك العظام من مجد باذخ، وما أبين التفجع والحسرة واللهفة والاستعظام فيه .

## مخالفته منهج الرثاء المألوف

ولكنا لانستطيع أن ندع هذه القصيدة دون أن نشير إلى ما تنطوى عليه من ظاهرتين : الأولى أن حسان قد خالف المنهج المألوف حين افتتحها بذكر عمرة، وتغزل بها ، وتحدث عن حبها وهجرها ، وقد كانوا يتجافون عن الجمع بين الرثاء والغزل . يقول ابن رشيق[8] : « وليس من عادة الشعراء أن يقدموا قبل الرثاء نسيباً كما يصنعون ذلك فى المدح والهجاء ». وقال ابن الكلبى — وكان علامة — : « لا أعلم

---

(١) جبل الثلج : قريب من دمشق . أيلة : العقبة .
(٢) الإقساط : العدل .
(٣) السّتر : جمع ستار ، كناية عن الخوف .
(٤) فتناهوا بعد إعصام بقر : أى تزايلوا بعد استمساكهم بالقرار .
(٥) مصاليت : جمع مصلت أى ماض فى الأمور .
(٦) الصفيح المصطفى : السيوف المختارة . الفطر : المثلمة المشققة .
(٧) تأذن الجن له : تستمع له . الفقر : جمع فقير وهو مخرج الماء من فم القناة .
(٨) العمدة ٢/١٢١ .

مرثية أولها نسيب إلا قصيدة دريد بن الصمة :

أَرَثَّ جديدُ الحَبْل من أمّ مَعْبَدِ بعاقبةٍ وأخلفَتْ كلَّ موْعِدِ

ونحن نضيف إلى ما علمه ابن الكلبي من ذلك هذه القصيدة لحسان .

الظاهرة الثانية أن حسان لا يرى فرقاً بين مدحه الغساسنة وبين الفخر بقومه ؛ لأنه يعلم أن الغساسنة هم قومه ، فإذا مدحهم فقد فخر بقومه ، وقد تبين ذلك من منهجه الذى أشرنا إليه فى هذه القصيدة ، وهو ما يؤيد ما ذهبنا إليه عند الكلام فى دواعى فخره . وفى تقرير أنه لم يتكسب بالمدح بشعره .

## الفنون الأخرى فى شعره

لم يخل شعر حسان من الحكمة يرسلها ، والمثل الأخلاقية يضربها ، والنظرات التأملية يجيلها ، ومن النصح يزجيه ، والشكوى يبثها ، فذلك أمر طبيعى من شاعر عرك الحياة وعركته ، وكان له فى ديار قومه دروس لقنها . وفى تجواله ورحلاته تجارب صادفته ، ومواعظ علمته .

## قلة الحكم والنصائح فى شعره

على أن شعر الحكم والنصائح والأخلاق والشكوى كان قليلا فى شعر حسان قلته فى شعر أهل عصره جملة ؛ فإن أولئك الشعراء كانوا يستوحون الطبيعة والبيئة والأحداث معارفهم ، ويقولون الشعر فى واقع حياتهم ، تستحوذ على أفكارهم ووجدانهم فيها شواغل وأمور ، تفرض نفسها عليهم فرضاً ، وتشدهم إليها شدًّا ، وكانت حياتهم تلك فطرية ساذجة غير معقدة ، لا تحتاج إلى تفرد بدرس ، أو قصد إلى تلقين حكمة ، أو اختصاص بتفصيل موعظة ، إلا ما دعا إليه الموقف ، واقتضته حال الشاعر ، عند المناسبات الداعية ، وفى غمار الحوادث الجارية .

ومما يتصل بما قدمنا ويشير إلى صوابه أن كل ما عثرنا عليه من شعر قليل لحسان فى هذه الأغراض شعر جاهلى ، قاله وقد اتسع وقته لإرسال النصائح والحكم والنظرات التأملية والكلام فى الأخلاق ، فلما جاء الإسلام وقد علت سنه ، وزادت تجاربه ، وأهلّته الحال لأن يكثر من القول فى ذلك ، شغلته أحداث الإسلام الجسام ، وتلك

المهام الكبار التى اضطلع بها فى ساحته، عن أن يولى هذا اللون من الشعر اهتمامه ، وضاق وقته وذرعه عن أن يضم إلى شعر الجهاد والجلاد والنبوة والدعوة هذا اللون الآخر . ونعرض فيما يلى شعره فى هذه الفنون :

## الحكمة

ومن قوله فيها[1] :

والمالُ يَغْشى أُناساً لا طَباخَ لهمْ ... كالسّيلِ يَغشَى أُصولَ الدِّنْدِنِ البالى[2]

والفقرُ يُزرى بأَقوامٍ ذوى حسبٍ ... ويُقتدَى بلئام الأَصلِ أَنذالِ[3]

أَصُونُ عِرضى بمـــالى لا أُدنِّسُهُ ... لا بارك اللهُ بعدَ العِرضِ فى المال

والحكمة فى هذه الأبيات جلية صادقة ، لأنها متصلة بالواقع الذى لا يحتاج المرء فى كشفه إلى عناء ، والذى يكابده ويردد الكلام فيه كثير من الناس، خاصتهم وعامتهم ، والشواهد عليه شائعة متواترة . ومن أجل ذلك ، ولأنها أفرغت فى قالب يجلو جمالها، ويعمق تأثيرها، يهش لها السامع ، وتستقبلها النفوس بالرضا والارتياح ، كما أن بلاغة التشبيه ودقته ونصاعته فى البيت الأول واضحة لا تحتاج إلى بيان .

وقول حسان :

أَصون عرضى بمالى لا أُدنسه ... لا بارك الله بعد العرض فى المال

قريب من قول زهير :

ومن يجعل المعروف من دون عِرضِه ... يفِرْه ، ومن لا يتق الشتمَ يُشْتَم[4]

فكلاهما يدعو إلى بذل المال صوناً للعرض وتوفيراً ، وإذا كان حسان زاد هذا المعنى تقريراً بالشطر الآخر من بيته ، فقد أضاف زهير إليه معنى جديداً بقوله : « ومن لا يتق الشتم يُشتم » .

---

(١) ديوان حسان ١٥٩ .

(٢) الطباخ : القوة والإحكام ، والمراد لا عقل لهم ولا قدرة . الدندن : جمع دندنة وهى أصل الشجرة العفن المتآكل .

(٣) يزرى بهم : يدخل عليهم العيوب ، الحسب : ما يعده الإنسان من مفاخر آبائه أو من مفاخره.

(٤) يفره : يحفظه تاماً .

وهو أيضاً شبيه بقول المثقّب العبدى[١] :

يجعل المالَ عطايا جَمّةً إن بعض المالِ فى العِرْضِ أَمَمْ[٢]
لا يُبالى طيِّبَ النفسِ به تَلَفَ المالِ إذا العِرضُ سَلِمْ

وقد وفق حسان حين أجمل ما أراد فى بيت واحد، كما أحسن المثقب فى بيتيه حين زاد المعنى تفصيلا ، وألبسه من اللفظ ثوباً جميلا .

ولن يدعونا فى هذا المقام ما هو معروف من أن المثقب جاهلى قديم ، عاصر عمرو بن هند[٣] ملك الحيرة، وهو بهذا متقدم على شاعرنا[٤] ، إلى ادعاء أن حسان قد أخذ هذا المعنى منه ، فإن هذا المعنى طبيعى تتجاوب به نفوس الكرام على اختلاف العصور ، ويردده الأحرار فى كل زمان ، وقد أشربته الطبائع السليمة، فهى معه فى غنى عن الأخذ والتلقين ، والاقتناع به قدر مشترك بينها ، ولا فضل لشاعر أو سواه فى اختراعه، وإنما الفضل فى حسن عرضه وبلاغة التعبير عنه . هذا إلى أن كلا الشاعرين قد اتخذ له منهجاً خاصًّا فى كلامه ، وأسلوباً يخالف أسلوب غيره فى حديثه . كما أننا لا نستطيع أن نغلق باب توارد الخواطر ، فنحرِّم على الناس أن يتكلموا فيما تناوله السابقون دون أن نصمهم بالسطو والسرقة ، وقد وفّى القاضى الجرجانى الكلام فى هذا الباب[٥] ، كما فصله البديعى الدمشقى[٦] .

ومن شعره فى الحكمة يحذر من غوائل الشباب فى أوائله ، وفتون الشعر الأسود وغروره ، وجنون طاعتهما ، والانسياق فى تيارهما[٧] :

إن شَرْخَ الشبابِ والشَّعَرَ الأَسـ ـوَدَ ما لم يُعاصَ كان جنونا[٨]

---

(١) المفضليات ١٤٢ .
(٢) أمم : غاية ومقصد .
(٣) الشعر والشعراء ١٤٧ .
(٤) قتل عمرو بن هند سنة ٥٧٨ م .
(٥) الوساطة ١٥٥ وما بعدها .
(٦) الصبح المنبى ١/٢٦٩ ( هامش العكبرى ) .
(٧) ديوان حسان ١١٥ .
(٨) شرخ الشباب : أوله .

وقوله وقد ألبسه ثوب النصح[١] :

أَعْرِضْ عن العَوْراءِ إنْ أُسْمِعْتَها ... واقعدْ كأنك غافلٌ لا تَسْمعُ[٢]
ودع السؤالَ عن الأُمور وبحثَها ... فلرب حافرِ حفرةٍ هو يُصْرَعُ
والزم مجالسةَ الكرامِ وفعلَهمْ ... وإذا اتَّبعْتَ فأَبصرَنْ من تَتْبَعُ
لا تَتْبَعَنَّ غَــوايةً لِصَبابةٍ ... إنَّ الغَوايةَ كلَّ شرٍّ تَجمعُ
والقومُ إن نُزِروا فزِدْ فى نَزْرِهمْ ... لا تَقْعُدَنَّ خِلالَهم تَتَسَمَّعُ[٣]
والشُّربَ لا تُدْمنْ وخذْ معروفَهُ ... تُصبحْ صحيحَ الرأس لا تَتَصدَّعُ[٤]
واكدَحْ بنفسكَ لا تُكلِّفُ غيرَها ... فبِدِينِها تُجْزَى وعنها تُدْفَعُ[٥]
والموتُ أَعْدادُ النفوسِ . ولا أَرى ... منه لِذى هَربٍ نجاةً تنفع

## الشعر والحكمة

ولا شك فى أن الإلحاح على الشعر بالحكمة . وجعله كله نصحاً خالصاً يقلل من مخالطته النفوس ، ويضعف سحره الشعرى ، وقد يهبط به إلى مستوى الكلام المنظوم ؛ لأن الشاعر عندئذ يلتزم ركوب الصعب ، ويرتدى طيلسان الحكمة والنزاهة والورع ، وربما حمل نفسه بذلك ما ليس فى طبعها ، ودعا إلى غير ما يفعل ، ونهى عما لا يحترز منه . فيفوته صدق الأداء . وتعوز شعره حرارة العاطفة ويدركه الفتور . ولأن النفس بطبيعتها تزورّ عن كل تكليف يئودها ، وتنفر من كل عقال يقيدها . ولهذا غلب الضعف على شعر من التزم هذا المنهج ، كصالح بن عبد القدوس وأبان بن عبد الحميد اللاحقى وغيرهما . ولم يلق قبولا حسناً عند نقاد العرب . وإن أعجب بعض أهل الورع والتقوى من المسلمين ، على أن هذا

---

(١) ديوان حسان ١٧٧ .
(٢) العوراء : الكلمة القبيحة .
(٣) نزروا : قل عطاؤهم وألح عليهم فيه .
(٤) معروفه : ما لا يضر منه .
(٥) الدين هنا : الجزاء .

الإعجاب ربما كان راجعاً فى جملته إلى ما حواه الشعر من حكمة بالغة وموعظة حسنة ، لا إلى أنه شعر استوفى خصائص الشعر الرائق ، وأسباب الشاعرية الأصيلة ؛ ذلك لأن الشعر لا ينهض فنًّا جميلا دفاق الشاعرية بالحكمة المباشرة والموعظة السافرة ، فسبيل الأدب الرفيع الإيحاء والإيماء ، لا الإلزام والإملاء ، وطريقه التصوير والتلميح ، دون الكشف والتصريح ، لهذا ترى الشعر فى القطعة السالفة جارياً على أسلوب المؤدِّبين من الحكماء والآباء ، وهو يختلف عن أسلوب الشعراء والأدباء .

وفى قول حسان ببيته الأخير :

والموت أعداد النفوس ، ولا أرى منـــه لذى هرب نجاة تنفع

تصريح بأن الموت واقع لا نجاة منه ولا مهرب .

وهو شبيه بقول طرفة بن العبد :

أرى الموت أعْدادَ النفوسِ ، ولاأرى بعيدًا غدًا ، ما أقربَ اليومَ من غد

الذى أومأ إلى غرضه من ضرورة إدراك الموت كل نفس ، إن لم يكن اليوم ففى الغد القريب ، وساقه فى مقاطع حسنة ونسق جميل . وليس بعيداً أن يكون ذلك من قبيل توارد الخواطر على الشاعرين ، أو يكون حسان قد تأثر ببيت طرفة المذكور .

## الأخلاق

ومن شعره فيها[1] :

أَلِين إذا لان العَشيرُ ، فإن تكن به جِنَّـــةٌ ، فجِنَّتى أنا أقدمُ[2]

قريبٌ بعيدٌ ، خيرُه قبلَ شرِّه إذا طلبوا منى الغرامةَ أغرَمُ[3]

فيكشف بقوله عن شيمته وخلقه فى ملاينة من يلاينه ويحسن معاملته من العشراء والمخالطين ، وضراوته وبطشه بالشكس المطبوع على العدوان منهم ، فليست ليونته

---

(١) ديوان حسان ١٣٦ .

(٢) العشير : المعاشر والقريب . الجنة : الجنون .

(٣) قريب بعيد : قريب بالنفع والخير للقريب ، بعيد بهما عن البعيد .

طبيعة ضعف ، وإنما هى طبيعة عطف ، من استحقه لقيه . وكأنه يضع نفسه فى ذلك موضع السيف فى قول القائل :

وكالسيف ، إن لاينْتَهُ لان مَسُّهُ وحَدَّاه إن خاشَنْتَهُ خَشِنان

وهو مع مجازاته كل امرئ بما يستحق فإن الخير فى طبعه يسبق الشر ، يسارع إليه ويبذله ، وإذا دعا حال قومه إلى أن يضحى فى سبيلهم ويغرم تلقى ذلك بالاستجابة والرضا . ثم نراه يعرض من أخلاقه ما يبدو فى قوله[1] :

لا أَخْدِشُ الخدشَ بالنديم ، ولا يخشى جليسى إذا غضبتُ يدى[2]
ولا نديمى العِضُّ البخيلُ ، ولا يخاف جارى ما عشتُ من وَبَدِ[3]

فشأنه فى سكره شأنه فى صحوه ، لا يؤذى نديمه أو جليسه بقول أو فعل ، ولا يخشى أحدهما منه بادرة يد أو لسان ، خُلُق علية الناس وسادة الأقوام ، وبمثل هذا يفخر الفاخر ويزجى الثناء ، وبمثل هذا يؤبن متمم بن نويرة أخاه مالكاً . فيقول فى بعض الرثاء[4] :

وإن تَلْقَه فى الشَّرْب لاتَلْقَ فاحشاً على الكأس ذَا قاذورة مُتَزَبِّعَا[5]

وهو إلى ذلك يتخير نديمه على شاكلته ، ليس بالبخيل ولاسيئ الخلق ، ويُفضِل على جاره ويرعاه فلا يخشى فقراً ولا سوء حال .

ثم يعرض حسان فيما يشبه الفخر بنفسه للون من الأخلاق ، هو حسن المصاحبة وحسن المفارقة ، والجلادة على المصائب ، واحتمال النوائب بفقد الإخوان . وما يكون من العزاء الجميل عنه ، والاحتفاظ بالعزة إزاءه ، فيقول[6] :

---

(١) ديوان حسان ١٣٨ .

(٢) أخدش : أعيب وأوذى . النديم : الصاحب على الشراب .

(٣) العض : البخيل والسيئ الخلق . الوبد : الفقر وسوء الحال .

(٤) المفضليات ١٢٧ .

(٥) الشرب : القوم المجتمعون على الشراب . المتزبع : السيئ الخلق المعربد المداوم على الكلام المؤذى .

(٦) ديوان حسان ١٥٩ .

كم من أخى ثقةٍ محضٍ مَضاربُهُ فارقتُه غيرَ مَقْلِيٍّ ولا قالى[١]
كالبدر كان على ثَغْرٍ يُسَدُّ به فأصبح الثغرُ منه فَرجُهُ خالى[٢]
ثم تعزيتُ عنه غيرَ مُخْتَشِعٍ على الحوادث فى عُرْفٍ وإجمال[٣]

## الشكوى

وفيها يقول[٤] :

لم تكن سُعدى لِتُنْصفَنى قَلَّ ما يُنْصفُنى الصاحبُ
كأَخ لى لا أُعاتبُهُ وَبما يسْتكْثِرُ العاتبُ
حَدَّث الشاهدُ مِن قولِه بالذى يُخفِى لنا الغائبُ
وبَدَتْ منه مُزَمَّلَةٌ حِلمُهُ فى غَيِّها ذاهبُ[٥]

ويقول[٦] :

ماذا يحاولُ أقوامٌ بفعلِهمُ إذ لا يزال سفيهٌ هَمُّهُ حالى
لقد علمتُ بأَنى غالبى خُلُقِى على السماحة صُعلوكاً وذا مال[٧]

والشكوى حين يرسلها حسان ليست أمراً غريباً، فقد كان محسَّداً، والمحسدون دائماً يُنالون بما يسوءهم ، وبعض الشانئين يسر لهم البغضاء ، ويلمزهم فى الخفاء ، والسفهاء يتعقبونهم فى كل حال ، يعدون عليهم الهفوات ، ويطلقون حولهم الشائعات.

---

(١) محض مضاربه : خالص النسب . غير مقلى ولا قالى : غير مكروه ولا كاره .

(٢) الثغر : الفرجة فى الجبل أو الوادى ، وما يخاف عليه الأعداء من أطراف البلاد . وفرج الثغر موضع المخافة منه .

(٣) مختشع : ذليل . العرف : المعروف .

(٤) ديوان حسان ١٣٩ .

(٥) مزملة : مستورة ، يريد بها الأمور الخافية . الغى : الضلال .

(٦) ديوان حسان ١٥٩ .

(٧) الصعلوك : الفقير .